جامعة: جنوب الوادي-فرع الغردقة

كلية التربية

محاضرات في مقرر

"مدخل إلى الأدب العربي"

الفرقة: الثالثة أساسي لغة عربية

إعداد/

قسم اللغة العربية

٢٠٢٢م/٢٠٢٣م

بيانات المقرر

الكلية: التربية بالغردقة.

الفرقة: الثالثة.

التخصص: أساسي لغة عربية.

التاريخ: ٢٠٢٢-٢٠٢٣م.

عدد الصفحات: ١٢٩ صفحة.

عدد ساعات المقرر: ٤ ساعات.

الإعداد: قسم اللغة العربية.

****

رؤية الكلية:

كلية التربية بالغردقة مؤسسة رائدة محليًا ودوليًا في مجالات التعليم، والبحث العلمي وخدمة المجتمع، بما يؤهلها للمنافسة علي المستوي: المحلي، والإقليمي، والعالمي.

رسالة الكلية:

تلتزم كلية التربية بالغردقة بإعداد المعلم أكاديميًا ومهنيًا وثقافيًا من خلال برامجها المتميزة بما يؤهله للمنافسة والتميز في مجتمع المعرفة والتكنولوجيا، ومواجهة متطلبات سوق العمل محليًا وإقليميًا، وتهتم بتطوير مهارات الباحثين بما يحقق التنمية المهنية المستدامة، وتوفير خدمات تربوية لتحقيق الشراكة بين الكلية والمجتمع.

****

مقدمة:

إنَّ تاريخ الأدب العربي هو العصور التي مرّت على الأدب العربي منذ بداياته التي وصلتْ، وهي البدايات الجاهلية النثرية والشعرية إلى هذا العصر، وتاريخ الأدب العربي يتضمن كلَّ النتاجات الأدبية في هذه العصور من شعر وقصة ومقامة ومسرح ورواية وخطب ووصايا وموشّحات، إضافة إلى المنافرات والنقائض وغير ذلك، ويسلّط تاريخ الأدب العربي الضوء على أسباب انحدار الأدب في بعض العصور القديمة، وازدهاره في عصور أخرى، ويضمُّ تاريخ الأدب العربي أيضًا سير الشعراء العرب والأدباء العرب بشكل عام وطرائفهم وحكاياتهم.

ويتَقَسَّم تاريخ الأدب العربي منذ بداياته وفقًا للعصور التي مرَّ بها، وهي: الأدب الجاهلي، أدب صدر الإسلام، الأدب الأمويّ، الأدب العباسي، الأدب الأندلسي، أدب عصور الدول المتتابعة، الأدب الحديث، ولكلِّ عصر مقوماته الخاصة وشعراؤه وأساليب شعرائه الخاصة بهم، ولهذا كان لزامًا على دارس الأدب العربي أن يمرَّ على كلِّ هذه العصور ويتعرّف على شعرائها وأساليبهم وحكاياتهم وسيرهم.

ويمكنُ تقسيم شعراء العرب وفقًا للعصور التي ينتمون إليها، فالحديث عن أشهر شعراء العرب حديث طويل، يمكن حصرُهُ في ذكر العصر وأبرز شعراء هذا العصر، ويكون هذا على الشكل الآتي: الأدب الجاهلي: إنَّ أشهر شعراء العرب الجاهليين هم: امرؤ القيس، الأعشى، عنترة بن شداد، النابغة الذبياني، طرفة بن العبد، الشنفرى، عمرو بن كلثوم، زهير بن أبي سُلمى، وأشهر شعراء أدب صدر الإسلام هم: حسان بن ثابت، عبد الله بن رواحة، كعب بن زهير، الحُطَيئة، ومن أشهر شعراء العصر الأمويّ هم: الأخطل الكبير، الفرزدق، جرير، الراعي النميري، عمر بن أبي ربيعة، أبو صخر

الهذلي، كثيّر عزّة، ذو الرمّة، الوليد بن يزيد، ومن أشهر شعراء العصر العباسي هم: أبو الطَّيب المتنبي، أبو فراس الحمداني، أبو العلاء المعري، أبو نواس، ابن الرومي، ومن أشهر شعراء الأندلس هم: أبو البقاء الرندي، ابن هانئ الأندلسي، ابن خلدون، ولادة بنت المستكفي، ابن عبد ربه، ثم عصر الدول المتتابعة: وهي الدول التي حكمت البلاد العربية في الفترة ما بين خروج العرب من الأندلس ونشوء الدولة العثمانية، وهذه الدول هي الفاطمية والزنكية والأيوبية والمملوكية، وأشهر شعراء هذا العصر: ابن الفارض، الشريف الرضي، العماد الأصفهاني، وأبرز شعراء العصر الحديث: أحمد شوقي، نزار قباني، عمر أبو ريشة، محمد مهدي الجواهري، عبد الرزاق عبد الواحد، محمود درويش، جبران خليل جبران، إيليا أبو ماضي، بشارة الخوري الأخطل الصغير، بدر شاكر السياب، أمل دنقل، ويمكن القول: إنَّ الحديث عن روائع الأدب العربي هو حديث ذوقيٌّ، يعتمد على ذائقة الإنسان، فقد يرى شخصٌ ما قصيدةً ما من روائع الأدب العربي، ويراها آخر قصيدة عادية، ولا ترقى للمستوى الذي رآها به الأول، والآن –عزيزي الطالب– ستدرس كل هذه العصور، وستبدأ بمشيئة الله بالعصر الجاهلي.

وفقكم الله وسدد خطاكم

توطئة

ما الأدب؟

تطور مفهوم كلمة "أدب" بتطور الحياة العربية من الجاهلية حتى أيامنا هذه عبر العصور الأدبية المتعاقبة، فقد كانت كلمة "أدب" في الجاهلية تعني: الدعوة إلى الطعام، وفي العصر الإسلامي استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم، كلمة "أدب" بمعنى جديد: هو التهذيب والتربية، ففي الحديث الشريف: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"، أما في العصر الأموي، فاكتسبت كلمة "أدب" معنى تعليميًا يتصل بدراسة التاريخ، والفقه، والقرآن الكريم، والحديث الشريف، وصارت كلمة أدب تعني تعلم المأثور من الشعر والنثر، وفي العصر العباسي نجد المعنيين المتقدمين وهما: التهذيب والتعليم يتقابلان في استخدام الناس لهما، وهكذا بدأ مفهوم كلمة الأدب يتسع ليشمل سائر صفوف المعرفة وألوانها ولاسيما علوم البلاغة واللغة، أما اليوم فيطلق كلمة "الأدب" على الكلام الإنشائي البليغ الجميل الذي يقصد به التأثير في العواطف القراء والسامعين، وتكمن فائدة الأدب العربي فى أثره البالغ في حياة الأمة الإسلامية، حيث إن تمسكها بتقاليدها الأدبية الموروثة، لهو الأساس لتوثيق الصلة بقرآننا ودیننا وتاريخنا.

تدوينه:

يعني تاريخ الأدب هو التأريخ للأدب، ونشأته، وتطوره، وأهم أعلامه من الشعراء، والكتاب، وكتاب تاريخ الأدب ينحون مناحي متباينة في كتابتهم للتاريخ، فمنهم من يتناول العصور التاريخية عصرًا عصرًا، ومنهم من يتناول الأنواع الأدبية، كالقصة، والمسرحية، والمقامة، ومنهم من يتناول الظواهر الأدبية، كالنقائض، والموشحات، ومنهم من يتناول الشعراء في عصر معين أو من طبقة معينة، حتى إذا جاء العصر العباسي الثاني أخذ الأدب يستقل

عن النحو واللغة، ويعني بالمأثور شرحا وتعليقا وبالأخبار التي تتعلق بالأدباء أنفسهم، وفي العصر الحديث انبرى عدد كبير من الأدباء، والمؤلفين، والدارسين، فكتبوا تاريخ الأدب العربي في كتب تتفاوت في أحجامها ومناهجها، فجاء بعضها في كتاب، والبعض الآخر في مجلدات، أما أقسام الأدب العربى، فهى:

أدب العصر الجاهلي:

ويغطي الفترة التي سبقت ظهور الإسلام بحوالي ١٥٠ عامًا، ومن أهم شعرائه: (امرؤ القيس – زهير بن أبى سلمى – النابغة الذبيانى – عنترة بن شداد– عمرو بن كلثوم– طرفة بن العبد– لبيد بن أبى ربيعة– الخنساء– تأبط شرًّا...).

أدب صدر الإسلام والعصر الأُموى:

ويبتدئ مع ظهور الإسلام، وينتهي بقيام الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ، ومن أهم شعرائه: (حسان بن ثابت– كعب بن مالك – عبدالله بن رواح – كعب بن زهير– الفرزدق – جرير– الأخطل – عمر بن أبى ربيعة – جميل بثينة– كثير عزة– قيس بن الملوح– أبوصخر الهذلى– الوليد بن عقبة...).

أدب العصر العباسي:

ويبتدئ بقيام الدولة العباسية، وينتهي بسقوط بغداد على أيدي التتار عام ٦٥٦ هـ، وأهم شعرائه: (أبو العلاء المعرى– المتنبى– البحترى– بشار بن برد – أبو نواس– ابن الفارض– أبو فراس الحمدانى– أبوالعتاهية – أبو تمام– ابن الرومى– سلم الخاسر...).

أدب عصر المماليك والعثمانيين:

ويبتدئ بسقوط بغداد، وينتهي عند النهضة الحديثة سنة ١٢٢٠ هـ، ومن أهم شعرائه: (ابن نباتة – أبو الحسين الجزار– سراج الدين الوراق – الإمام البوصيرى– صفى الدين الحلى– البوسعيدى– شهاب الدين الحموى– شهاب الدين الخفاجى – بهاء الدين العاملى...).

أدب العصر الحديث:

ويبتدئ باستيلاء محمد علي باشا على مصر ولا يزال، ومن أهم شعرائه: (أحمد شوقى – محمود سامى البارودى– إبراهيم ناجى– على محمود إسماعيل– صلاح عبدالصبور– أمل دنقل– بدر شاكر السياب– أدونيس– عمر أبو ريشة– إبراهيم طوقان – بدوى الجبل – جبران خليل جبران– إيليا أبو ماضى – نزار قبانى– ...).

****

الفصل الأول

مدخل إلى الشعر الجاهلي

المبحث الأول
نُبذة مختصرة عن العصر

العصر الجاهلي أقدم العصور الأدبية ويسميه بعض الدارسين عصر ما قبل الإسلام، وهو عصر موغل في القدم، بعيد العهد في الزمن والامتداد، وموطنه هو شبه جزيرة العرب، ذات الصحارى الواسعة، والبطاح الممتدة، التي تحيط بها – أو تتخللها – جبال وهضاب مختلفة، وهذه المناطق جميعا كانت في العصر الجاهلي ميادين لحروب وغزوات، ولأحداث سياسية، وظواهر اجتماعية وتجارية واقتصادية، وأثرت في الأدب الجاهلي، شعره ونثره، ومهما يكن من أمر، فقد ورثنا عن تلك الحقبة الجاهلية أدبًا ناضجًا في لغته وشعره ونثره، ولكن هذا الأدب الذي وصل إلينا لا يشمل الحقبة كلها، قبل الإسلام، ذلك أننا لا نملك نصوصا مدونة عن مبدأ الشعر عند العرب، وعن تطوره حتى بلوغه المرحلة التي كان عليها عند ظهور الإسلام، والمعروف أن أقدم ما وصل إليه علمنا من ذلك الشعر لا يرقى عهده إلى أكثر من قرنين عن الهجرة، وقد أشار الجاحظ إلى قضية قدم الشعر العربي فقال: وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن...فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أن جاء الإسلام – خمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام، ومن أقدم الشعراء الذين عرفنا أخبارهم ووصلتنا أشعارهم امرؤ القيس بن حجر الكندي، الذي يقال إنه أول من وقف بالديار واستوقف وبكى واستبكى، لكنه هو نفسه يذكر شاعرًا آخر أقدم منه، بكى الأطلال قبله، وهو ابن خذام، فيقول:

عوجا على الطلل المحيل، لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ولم يكن بنو كلب بدعًا في القبائل، فكل قبيلة ادعت لشاعرها أنه الأول أو الأقدم: فامرؤ القيس في اليمانية، وعبيد بن الأبرص في بني أسد، ومهلهل بن ربيعة في تغلب، وعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر في بكر، وأبو دواد في بني إياد.

وهؤلاء جميعا متقاربون في الزمن، ولم يعثر العلماء على شعر قديم مدون بقلم جاهلي، وكل ما يعرف من هذا الشعر مستمد من أفواه الرواة الذين كانوا يتناقلون الأشعار الجاهلية عن طريق الرواية والحفظ، وتعود أسباب ذلك إلى انتشار الأمية عند العرب، وقلة وسائل التدوين والكتابة لديهم، إذ اقتصر على الحجارة الرقيقة، والجلود، والعظام، وسعف النخيل، وما إليها، ومن ثم كان المعلمون قلة بينهم، وفي بعض الأشعار الجاهلية إشارات إلى وجود الكتابة ونقوشها، وهي ترد في مطويات وصف الشعراء للأطلال والرسوم الدارسة، كقول الأخنس بن شهاب التغلبي، مشبها أطلال المحبوبة بالكتابة على الجلد الرقيق الناعم:

لابنةِ حطّان بـن عوف منـازل كما رقش العنوان في الرق كاتبه

على أن استعمال الكتابة يقتصر على شؤون من الحياة الاجتماعية والتجارية وما إليها، مما يكون ميدانه النثر، من دون الاتكاء عليها في كتابة الشعر؛ لأن العرب كانوا يعتمدون في حفظ الأشعار على الرواية الشفوية، حتى في خطبهم ووصاياهم وأمثالهم، يسعفهم في هذا الحفظ ذاكرة قوية تأنس بموسيقى الشعر وأوزانه، خاصة، واعتادت ذلك حتى صارت سجية من سجاياهم، وطبيعة متأصلة فيهم، فضلاً عن حبهم للشعر وعنايتهم الفائقة بروايته وتناقله، لأنه ديوان مناقبهم، وسجل حياتهم وانتصاراتهم، ولم يكن لهم – كما يقول ابن رشيق – علم أصح منه، فلا غرو أن يكون دعامة السّامرعندهم، ومدارَ حلقات القوم لديهم، في مواسمهم وندواتهم، وقد أدى ذلك أيضا إلى ظهور حلقات من الشعراء الرواة، الذين يأخذ بعضهم عن بعض، مما يمكن

أن يسمى اليوم بالمدارس الشعرية، وأشهرها تلك التي تبدأ بأوس بن حجر، وعنه أخذ الشعر ورواه زهير ابن أبي سلمى، ولزهير راويتان: ابنه كعب، والحطيئة، وكان هدبة بن الخشرم راوية الحطيئة، وعن هدبة تلقن الشعر ورواه جميل بن معمر، صاحب بثينة، وراوية جميل هو كثير عزة، الذي يُعد آخر من اجتمع له الشعر والرواية.

و«لما جاء الإسلام شغل العرب والمسلمون عن الشعر بالغزو والفتوح، ولما اطمأنوا بالأمصار، واستقرت دولتهم، راجعوا رواية الشعر – كما يقول ابن سلام – فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير»، ومع ذلك، فقد نشطت رواية الشعر في القرن الهجري الأول، لأسباب مختلفة، ولازمها بعد قليل نشاط حركة التدوين عامة، ونشأت طبقة من الرواة الذين يتخذون رواية الأخبار عن الجاهلية وأيامها، وكان من نتائج ذلك وجود شعر مفتعل صنعه الرواة الوضاعون، ونسبوه إلى شعراء جاهليين، سندًا لعصبية قبلية، أو رفدًا للقصص والأخبار، أو إذاعة لنزعة شعوبية، أو إرهاصًا للبعثة النبوية، وقد عرف بالوضع من رواة الكوفة: خلف الأحمر، وحماد الراوية، كما اشتهر – إلى جانبهم – رواة ثقات من أهل البصرة والكوفة: كالمفضل الضبي، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبي عمرو بن العلاء، والفراء، وابن سلام، وغيرهم، ميزوا الشعر الصحيح من الشعر الزائف، وكان في مقدمة هؤلاء ابن سلام الجمحي الذي عالج هذا الموضوع مفصلاً في طبقاته، ومما كما أن في كتاب «الأغاني» إشارات كثيرة إلى أشعار منحولة، وأخبار موضوعة، نص عليها أبو الفرج بعد أن تفحص رواياتها، ورجع إلى دواوين الشعراء أنفسهم، وقد وجد الباحثون المعاصرون بين أيديهم عددًا من مصادر الشعر الجاهلي التي جاءت عن طريق الرواة الأمناء الصادقين، الذين وقفوا جهودهم على التحري والتثبت، ولم يخف

عليهم وجود شعر جاهلي منحول كشفوا جانبًا منه، ولقد حازت آثار أولئك الرواة القبول والتقدير، وعُدّت مصادر أساسية للشعر الجاهلي، وأهم هذه الآثار:

. دواوين الشعراء القدماء: كزهير، والنابغة، وامرئ القيس.

. دواوين القبائل العربية: كديوان الهذليين، الذي لم يصل إلينا كاملاً.

. المجموعات الشعريةالموثوق بها: كالمعلقات وشروحها، والمفضليات، والأصمعيات، والنقائض وشروحها، والحماسات.

. كتب الأدب، واللغة، والنحو: كالبيان والتبيين، والحيوان، ومجالس ثعلب، وعيون الأخبار، والكامل، والأمالي،...

. الكتب النقدية البلاغية: كالموشح، والصناعتين، والموازنة والوساطة.

. كتب التراجم والطبقات: كمعجم الشعراء، والمؤتلف والمختلف، وطبقات ابن سلاّم، والشعر والشعراء، والأغاني.

****

المبحث الثاني
فنونه الشعرية

هذا الشعر، الذي قيل فيه إنه ديوان العرب، يعد صورة للبيئة التي نشأ فيها أصحابه قبل الإسلام في كثير من جوانبها الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والمعرفية، والدينية، كما يعكس ذلك الشعر طائفة من الجوانب النفسية، والمثل الأخلاقية للعرب، من شجاعة وفروسية وفتوة، ومن إكرام للضيف وإغاثة للصَّريخ وغير ذلك، ومن ثم تعددت أغراض الشعر الجاهلي وفنونه، فكان فيه غزل، ومدح، كما كان فيه فخر، ورثاء، وهجاء، فضلاً عن الحكمة والوصف، ووجود هذه الفنون والأغراض في الشعر الجاهلي، لا يعني أن القصيدة منه كانت خالصة دائما لموضوع واحد، وأغراض لا تحيد عنه، فقد تضم غرضين أو أكثر، ولكنها تنسب إلى ما نظمت من أجله، هجاء، أو مدحًا، أو فخرًا، وإن تخللتها موضوعات جانبية أخرى، وأما أشهر الأغراض والفنون في الشعر الجاهلي فهي:

الغزل:

يكاد الغزل يفوز بالنصيب الأوفى بين سائر الأغراض الأخرى، على تفاوت حظوظ الشعراء الجاهليين منه، ذلك أنه أعلق الفنون الشعرية بالأفئدة، وأقربها إلى النفوس، لما للمرأة من آثار عميقة في حياة الرجل، وتغذية عواطفه وأحاسيسه، ومرافقته في حله وترحاله، وفي حربه وسلمه، وزيارته لأحبته وذوي قرباه، ووقوفه على أطلالهم بعد الرحيل والفراق، ومن أبرز سمات الغزل عند الجاهليين، ظاهرة التعلق بالمرأة والسعي إلى مودتها، ووصف مفاتنها الجسدية، وإمام الشعراء في ذلك هو امرؤ القيس، الذي قضى شبابه في اللهو والشراب، وأصاب من الغزل والمرأة ما جعله السابق

المجلّي في هذا المضمار، وأشعاره، ولاسيما معلقته، صُوَرٌ وحكايات لما كان بينه وبين النساء، وكذلك ثمة جانب من هذا المذهب الحسي، في الحديث إلى المرأة وفي وصفها عند شعراء آخرين كالأعشى والنابغة الذبياني، ويمكن الخروج من قراءة أشعارهم الغزلية إلى جملة من المقاييس التي كانوا يعتدون بها في تقويم الجمال، والمفاتن الجسدية: فالمرأة تشبه بالدرة الصدفية حينا، والدمية المرمرية حينا آخر، وأصابعها لينة كالعَنَم، ولونها المفضل هو البياض، وخصرها ضامر نحيل، بخلاف ردفها الذي يستحسن أن يكون ثقيلاً مكتنزا، وساقيها اللتين يستحب أن تكونا ممتلئتين، والشعر طويل فاحم، والأسنان بيضاء نقية، والمشية هينة مترسلة.

وقد ينصرف الشاعر في غزله إلى التغني بفضائل المرأة وذكر مناقبها وكريم سجاياها، وعفتها، ولا سيما عند وقوفه على الأطلال توخيا لتهيئة الأذهان وشد الأسماع قبل الوصول إلى غرضه الأساسي، أما تصوير الشاعر الغزِل لما يقاسيه من تباريح الصبابة، وما يعانيه من عذاب مقيم، وآلام مبرحة، وهيام طاغ، فهذا كله منبث في أشعار المتيمين من الجاهليين الذين قضوا حياتهم يعانون ألم الفراق، ويقضون الليل ساهرين أرقين ويشكون من تجني المحبوبة، حتى تنحدر دموعهم، وتتقرح أكبادهم، والشعراء، الذين سلكوا هذا المذهب، معظمهم من العشاق الذين عرفوا بالعفة والبعد عن الأوصاف الحسية للجسد، ومعاناة الأشواق اللاذعة، ويمكن أن يعد غزلهم النواة الأولى للغزل العذري الذي عرف في العصر الأموي، ذلك أن كل واحد منهم اقترن اسمه بصاحبته التي اشتهر بها، ومنهم عنترة صاحب عبلة، ومثلا المخبَّل السَّعدي ومَيْلاء، وعبد الله بن العَجْلان وهند، وغيرهم.

المديح:

كانت للناس في العصر الجاهلي مثل عليا، ومعايير خلقية تعارفوا عليها، وورثوها عن أجدادهم، كالشجاعة والكرم، وحماية الجار، وإغاثة

الملهوف وعراقة النسب، وجاء شعر المديح ليشهد بهذه السجايا وما هو منها بسبب: كالعقل، والعفة، والعدل، والرأي السديد، وقد يستدعي المقام والمناسبة ذكر مناقب أخرى تأتي في ساعتها: من جميل يؤثر، وصنيع يقدم، وأسير يطلق سراحه، فيكون الاعتراف بذلك الجميل، والشكر لذاك الصنيع، وهكذا قام المديح مقام السجل الشعري في رسمه لنواح كثيرة من حياة الأعلام، ملوكا، وسادة، وأجوادا، وبذلك أغنى التاريخ وكان رديفا له ومتمما، وإن كان يمتزج غالبا بالإسراف والمبالغة، ويختلط فيه الواقع بالخيال، والعقل بالعاطفة والحق بالباطل. ولذلك ينبغي أن يقف الباحث من شعر المدح موقف الحذر والنقد والتمحيص، وألا يأخذه على أنه صدق لا كذب فيه، أو حقيقة لا يشوبها الشك، وقد سلك الشعراء المدَّاحون في العصر الجاهلي طريقين، أحدهما أو كليهما:

الطريق الأول: هو طريق التكسب والاحتراف، وميدانه قصور الملوك، ومجالس الأمراء، وأفنية الأشراف والأعيان، وقد انحرف الشعر إلى هذا الميدان على يد النابغة الذبياني، الذي سن للشعراء سنة المديح الرسمي – في تنقله بين قصور المناذرة والغساسنة – ومدح ملوكهم، كما سخر شعره لكل من يجود عليه أو يرعاه في كنفه، وكان هذا أول الاحتراف في المديح والتكسب به، وقد حظي النعمان بن المنذر بنصيب وافر من ذلك، وجاء الأعشى ليسير على سنن النابغة في المديح، بل إنه أسرف في المسألة والتكسب، فأصبح يمدح كل من أعطى، ويشكر بشعره كلَّ من أكرم، حتى يخرج عن حدود التصديق، كما في مديحه للأسود بن المنذر اللخمي – شقيق ملك الحيرة – ولهوذة الحنفي، ومن هؤلاء الشعراء المتكسبين أيضا: حسان بن ثابت، والمسيب بن علس، والمنخل اليشكري، والممزق العبدي، والحارث بن ظالم، وعلباء بن أرقم.

أما الطريق الثاني: فهو طريق الإعجاب والشعور الصادق، والشعر هنا يصدر – فيما يقول – عن حب عميق، وإحساس نقي، لا تملق فيهما ولا تزلف، وحامل لواء هذا الشعر هو زهير ابن أبي سلمى، الذي سخر شعره لكل من قام بإصلاح ذات البين، أو صنع مأثرة كريمة، نائيا بأشعاره المدحية عن المبالغة والشطط، ومن ممدوحيه: هرم بن سنان، والحارث بن عوف، اللذان أصلحا بين عبس وذبيان، في حرب داحس والغبراء، وبذلا من أموالهما ديات القتلى حقناً للدماء، ونشراً للسلام بين المتحاربين.

الفخر:

وهذا فن شعري تربطه بالمدح صلات وشيجة، فالمعاني التي تتردد في المدح، هي نفسها مما يتغنى به الشعراء مفتخرين، ذلك أن الحياة العربية في العصر الجاهلي قامت على مواجهة المخاطر، والمزاحمة على الماء والكلأ، والشجاعة في القتال، وما يتصل من ذلك كله بسبب: كالتغني بالبطولات وشن الغارات، وتمجيد الانتصارات، وكثرة العدد والعدة، ومنازلة الأقران، ونجدة الصريخ، والحفاظ على الشرف والجار، وهذه الأمور جميعا أذكت قرائح الشعراء، ووفرت لهم أسباب التفاخر والتباهي، منفردين ومجتمعين، فانطلقت ألسنتهم بأشعار زاخرة بالعاطفة القوية، والانفعال العميق، تبرز فيها الحقائق التاريخية مجلببة بجلباب الخيال والمغالاة، وهذا الفخر يكون قبليا تارة تسيطر عليه روح حماسية جارفة، وهذا شأنه دائما في مواطن الكر والفر، والأخذ بالثأر وتضييق الخناق على الأعداء، واستطابة الموت عند الحرب، إذ ينطوي شعر الفخر على دفقات قوية من الحماسة، ويكون من ذلك مزيج متلازم.

ومن خير ما يمثل هذا الفخر القبلي الحماسي معلقة عمر بن كلثوم التغلبي، التي سجل فيها انتصارات قبيلته، ومنعتها، وما يتحلى به أفرادها من

شجاعة وإقدام، وسطوة وهيبة وأنفة وإباء، وهذه الحماسة المزهوة لا تحول دون إنصاف الشاعر لأعدائه، والإقرار بقوتهم وشجاعتهم، وعرفت في الشعر الجاهلي قصائد من هذا القبيل سميت «المنصفات» ومن أصحابها: العباس ابن مرداس، وعوف بن الأحوص، وخداش بن زهير، ويكون الفخر تارة أخرى ذاتيا ينبعث من نفوس تهوى العزة والمجد، وتحرص على بناء المكارم، والتباهي بمآثرها الفردية، ويبدو هذا الفخر الذاتي لدى طائفة من الشعراء الفرسان والأجواد، كعنترة، وحاتم الطائي، وعمرو بن الإطنابة، والشعراء الصعاليك كالشنفرى، وتأبط شراً، وهنا يحلو للشاعر أن يتحدث عن نفسه وخصاله، وعراقة أصله، وطيب منبته، ومايتحلى به من كرم ومروءة وحماية للجار، وغير ذلك من الفضائل الخلقية، وفي معلقات طرفة بن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، صور كثيرة من هذا الفخر الفردي، تتلاقى على صعيد واحد، وقد وشحها أولئك الشعراء بذكر القصف واللهو، والفخر بشرب الخمرة في معرض الحديث عن الكرم والإكرام.

الرثاء:

يلتقي الرثاء والمديح في أنهما كليهما إشادة بالمرء وإعلاء شأنه، لكن الأول إشادة بالميت وخصاله، والثاني إشادة بالحي وتمديد لمآثره وسجاياه، ويمتاز الرثاء أيضا بأنه فن شعري ثابت المعاني والهدف، لأنه يعبر في معظم أحواله عن انفعال وجداني، وشعور عميق بالحزن والألم، حين تفقد الأسرة أو القبيلة، عزيزا فيغمرهم الحزن وتتحرك الشاعرية لتعبر عن الأسى المشترك، والخسارة الفادحة والمجد الذي انهد ركنه، والشمائل التي حكم بها الموت للقبر والتراب. وقد يصحب تعداد شمائل الميت، والبكاء عليه، أخذ بأسباب العزاء فيه، ودعوة إلى الصبر على حدثان الدهر، والتأسي بمن طوتهم المنون من قبل، لأن الدنيا دار فراق وزوال، لا دار خلود وبقاء، وليس أمام الإنسان سوى الاستسلام للأقدار، والقبول بالقضاء، وهذه المعاني

والأفكار، في جملتها تتردد في أشعار الرثاء عند الجاهليين، وقد يطغى جانب منها في القصيدة على آخر، أو تتفرع عنها معان جزئية، ولكن تظل المناحي الأساسية بارزة في تلك الأشعار.

وإذا كان المرثي ذا منزلة رفيعة لجأ الشاعر إلى المبالغة وتهويل الخطب وإشراك الطبيعة في استعظام المصاب، وقد اشتهر عدد من الشعراء أجادوا الرثاء في العصر الجاهلي، منهم: المهلهل بن ربيعة، ودريد بن الصمة، وأعشى باهلة، ولبيد، وطفيل الغنوي، وأوس بن حجر، وأبو دواد الإيادي، كما عرف كثير من النساء بإجادة هذا الفن الشعري والنبوغ فيه، كالخنساء، وجليلة زوجة كليب، وسعدى بنت الشمردل، والرثاء عند هؤلاء الشعراء والشواعر، منه ما يكون في الأقرباء الأدنين: كما في رثاء المهلهل لأخيه كليب، والخنساء لأخويها صخر ومعاوية، ولبيد لأخيه أربد، ومنه ما يكون في أناس آخرين، من ذوي المكانة والشأن في قبيلة الشاعر، أو في غيرها من القبائل، ممن تقربهم إلى الشاعر صلات وثيقة.

الهجاء:

حظ هذا الفن في الشعر الجاهلي قليل؛ إذا قيس إلى الفخر أو الغزل مثلاً؛ ولكن أثره كبير في النفوس، ووقعه أليم في الأفئدة، لأنه يقوم على إذلال المهجو، وتجريده من الفضائل والمثل التي يفتخر بها القوم، أو التي بها يمدحون، ومن ثم الفخر، والمدح، والهجاء، تجمع ثلاثتها جملة من الفضائل وأضدادها، فالكرم، مثلاً، فضيلة لديهم، وفي مقابله تكون نقيصة البخل والشح، والشجاعة ضدّها الجُبن، وعلى هذا، فإن الهجاء في الشعر الجاهلي هو انتقاص للخصم، وتعيير له بجملة من المخازي والمساوئ التي يستهجنها مجتمعه، فمنها ما هو في مجال الحروب والغزوات التي حفلت بها حياتهم: كالجبن، والفرار عند اللقاء، والوقوع في الأسر، ودفع الفدية، ومنها ما هو في حيز العلاقات الاجتماعية، والنقائص النفسية: كالبخل، والاعتداء

على الجار، واللؤم، والغدر، والقعود عن المكارم، وما يتفرع عن ذلك كله من المعايب والسقطات التي يعدها العربي عارا يبرأ منه، أو يحذر الوقوع فيه، لئلا يصيب منه الشاعر مقتلاً، فضلاً عما تحرص عليه القبيلة في أفرادها كافة من كرم الأحساب، ونقاء الأنساب، لئلا تتحطم سمعتهم، أو ينهار بناء أحسابهم وأنسابهم، فيكونوا نصبا للهجاء، والهجاء عندهم على ضربين: هجاء فردي، وآخر جماعي يتجه إلى القبيلة نفسها وقد يجمع الشاعر بينهما، وهجاء الجاهليين عامة يسلك مسلك الجد، ولا يدخله الإفحاش ولا الشتيمة الصريحة، ولكن ربما داخله شيء من السخرية والتعريض والتلميح الموجع، بدلاً من الهجاء المباشر.

الوصف:

الوصف يغلب على أبواب الشعر جميعا، فهو باب واسع، يشمل كل ما يقع تحت الحواس من ظواهر طبيعية، حية وصامتة، وهكذا كان عند شعراء العصر الجاهلي الذين عايشوا الصحراء في حلهم وترحالهم، وألفوا القفار الموحشة، وما فيها من جبال ووديان ومياه وحيوانات أليفة وغير أليفة، فوصفوا ذلك كله لأنه وثيق الصلة بحياتهم وتقلباتهم، وكانت الناقة صاحبة الشاعر في جوبه لتلك الفيافي والمفاوز، وعليها اعتماده في كثير من أحواله، لذلك أكثر فيها القول، وافتن في وصف أجزاء جسمها، وصور كل أحوالها في سيرها وسرعتها، وصبرها على مشاق السفر، حتى كادت الناقة تستأثر بنصيب وافر في طول القصائد التي نظمها أصحاب المعلقات وغيرهم، كبشامة بن الغدير، والمثقب العبدي، والمسيب بن علس، وأوس بن حجر، وغيرهم، والفرس هو الحيوان الثاني الذي يرافق الشاعر الجاهلي، ويقاسمه العيش، ويتحمل معه التعب والعناء، والسير والسرى، ولاسيما في خروجه إلى الصيد، وخوضه الحروب، وقد عني العرب بالخيول الأصيلة، واتخذوا لها أسماء خاصة، وحفظوا أنسابها أيضاً، فلا غرابة أن يصفها شعراؤهم في

قصائدهم، ولكل واحد من هؤلاء الشعراء طريقته الخاصة في وصف فرسه، سواء أكان ذلك في مجال الصيد واللهو، كامرئ القيس، أم كان في ميادين الحرب والقتال: كعنترة والمزرَّد، أم كان وصفا عاما للفرس، على أنه مجلى النظر وموضع الفخر، كما هو الشأن عند طفيل الغنوي وأبي دواد، ولم يكتف الشعراء بوصف الناقة والفرس، وإنما وصفوا ضروب الحيوان الأخرى في بيئتهم ولاسيما الثور الوحشي، والبقرة الوحشية، وجعلوا وصفهم لهذين الحيوانين ذريعة إلى وصف الناقة بالسرعة والخفة عن طريق تشبيهها بأحدهما، وتخيل معركة ضارية بين الثور، أو البقرة من جهة، وكلاب الصيد من جهة أخرى. وتنتهي هذه المعركة غالباً بنجاة الحيوان الوحشي، وتغلبه على الكلاب، أو طعنه أحدها بقرنه.

وكذلك وصف الشعراء الجاهليون مظاهر الطبيعة حولهم كالليل، والسحاب، والرعد، والبرق،ووصفوا كذلك الخمر ومجالس الشرب واللهو والحرب وأسلحتها المختلفة. وهذا كله يدل على عناية أولئك الشعراء وغيرهم بوصف كل ما يحيط بهم وصفا دقيقا، في بساطة وجمال، وصدق في التعبير عن المشاعر والإحساسات، وتعاطف مع الحيوان عامة، بوساوسه وحذره وجرأته، معتمدين على القالب القصصي في كثير من الأحيان، وعلى التشبيه وسيلة للأداء والتصوير.

****

المبحث الثالث
أهم شعراء العصر الجاهلي

امرؤ القيس:

نسبه:

الملك الضليل، أبو الحارث جندح بن حجر، الكندي، شاعر يماني، حامل لواء الشعر في الجاهلية، أبوه ملك كندة، وقد عاش امرؤ القيس يسكر ويلهو ويقامر وينادم ويلحق بالنساء ويتشبب بهم، فغضب لذلك أبوه وركب الفتى رأسه، وانصرف إلى الملذات حتى قُتِل أبوه لعسفه في حكمه وإرهاقه الرعية وقسوته في الجباية، فهب امرؤ القيس من سكرته عندما أُلقيَت التبعة عليه وصار مسؤولًا عن دم أبيه، فاستنجد قبائل العرب فلم ينجده إلا قليل منهم، فقاتل بني أسد قتلةَ أبيه، فأنجدهم المنذر أحد ملوك الحيرة وناهض امرأ القيس لعداوة قديمة بينه وبين الحارث جد امرئ القيس، فغُلب امرؤ القيس على أمره وفر من وجههم، ونزل على السموأل فأودعه دروعه وابنته وكل ما له من متاع.

ذهب امرؤ القيس إلى ملك الروم يستنصره على مناوئيه؛ شيعة المناذرة التابعين للفرس، والفرس كما نعلم أعداء الروم في جزيرة العرب، ويقال إن قيصر أنجده ثم عدل، ومنهم من ينكر ذهابه إلى قيصر الروم، وحجته أن امرأ القيس لم يصف شيئًا من مظاهر القسطنطينية، والعالِم بنكبته لا ينكر ذهابه إلى القسطنطينية لأنه لم يصفها ولم يصف إحدى كنائسها، فأظن أنه كان في شاغل عنها! وهب أننا قلنا وصفها، فكيف يصل إلينا ما قاله فيها ونحن نعلم أنه مات على الطريق، أما قولهم إنه مات بحلة مسمومة

أرسلها إليه قيصر فهو ما لا أصدقه، ولا أظن إلا أنه مات بالجدري، هذا أصح تأويل لتلك القروح، وقد ثبت تاريخيًّا أن الجدري كان منتشرًا في السنة التي مات فيها، ويقولون إنه دفن في أنقره، حيث لفظ روحه.

شعره:

(١) تشبيب ووصف أيام الصبا، وذكر حوادث غرامية، شكوى وألم في المحنة، ويعذره من أنكروا وجوده؛ لأنه رقق النسيب وأجاد الاستعارة وتفنن بالتشبيه، لما تقدم من الأسباب.

(٢) تصرُّف في المعنى الواحد بطرق عديدة، وهذا تحديد البيان العربي.

(٣) وصفٌ دقيق مطابق للحقيقة والواقع.

(٤) ابتداع أسلوب جديد اتُّبع، ولا يزال بعضهم يمشي على الطريق التي شقَّها لهم.

(٥) في شعره تهتك وفحش، إلى جانب النبل والسيادة.

(٦) في بعض شعره عبارة جافية، ألفاظ خشنة، ومعانٍ قد تغرب عنك، وإلى جانب كل هذا: ديباجة حسنة، معنى بديع، رقة نسيب، سهولة مأخذ، وعلى منواله نسج الذين جاءوا بعد،. وبكلمة مختصرة: إنه زعيم الشعراء الوصافين في هذا العصر.

معلقته:

وموضوعها: ذكر الأطلال والبكاء عليها، ذكرى عنيزة ويوم دارة جلجل، وصف الليل وتشكي طوله، وصف الوادي والمطر، والوحوش والفرَس والبرق، وكاد يكون صادقًا في كل ما قال، وتفوق معلقته غيرها بما يأتي:

(١) بابتداع طريقة اتبعها بعده الشعراء، فكأنها كانت الطريق المعبدة حتى آخر العصر العباسي، ونستطيع أن نقول إن شعر النهضة الأخيرة لم يخلُ من التأثر بها.

(٢) وصف صحيح، تشابيه مبتكرة، مطابقة للواقع لم يسبق إليها ولم يلحق بها، فقلما خلا بيت من تشبيه ووصف معًا.

(٣) قوة التصرف بالمعنى الواحد، فيكون المعنى حسب المقام، فلا يمل بالإسهاب كطرفة ولبيد بوصف الناقة، ولا يخل الإيجاز.

(٤) فيها بعض ألفاظ ينفر منها السمع، وقد تجاوز حدود اللياقة والكياسة ببعض تعابير وأوصاف فكان كلامه فيها من نوع الأدب العاري.

(٥) فيها وصف خمسة أشياء: النساء، الليل، الخيل، الصيد، المطر وما يتخلله ويعقبه ...إلخ.

وبكلمة مختصرة نقول: لو قام الشعر بالوصف والتشبيه فقط لكانت خير الشعر.

طرفة بن العبد:

سيرته:

طرفة بن العبد، شاعر من قبيلة ربيعة، أقصر فحول الشعراء الجاهليين عمرًا، وأجودهم طويلة، وأوصفهم للناقة، طواه الردى في ميعة الشباب، سمَّاه المتقدمون: «ابن العشرين»؛ لأنه مات في تلك السن، أو ما يناهزها، ويُروى أنه نادمَ النعمان، ومنهم من قال عمرو بن هند، مع خاله المتلمس الشاعر، ثم توترت العلاقات بينهما لأسباب لا تهمنا معرفتها، فسلَّم النعمان كلًّا منهما رسالة إلى عامله في البحرين، فأخذا الكتابين معتقدين أن فيهما جائزة أو صلة، فإذا الأمر بالعكس؛ لأن المتلمس شك فأقرأ كتابه غلامًا من الحيرة، فإذا فيه أمر بالقتل، فألقى المتلمس كتابه في النهر وهرب إلى الشام، وعاش المتلمس بقية عمره يهجو النعمان، ويدعو العرب إلى عصيانه، أما طرفة فلم يشك، وظل سائرًا في طريقه إلى البحرين حيث قتله عامل النعمان فمات ولمَّا يتمتع بشبابه إلا قليلًا.

شعره:

على قلته قيِّم ممتع «عمومًا»، شديد الأسر متين النسج «أحيانًا»، معقد التركيب، كثير الغريب، مبهم المعنى، جيد الوصف، مع عدم تطرف في الغلو، يدل شعره على نفسية عاتية جبارة، لا تنظر إلا إلى الساعة التي هي فيها، يرى الدنيا على حداثته بعين الحكيم المجرب.

معلقته:

وأغراضها: وصف الدار وآثارها، تغزُّل، وصف الأحباب وسفرهم، وصف الناقة، افتخار بالنفس، زهد بالحياة، يأس منها، حكم، ومميزاتها: متينة اللفظ والأسلوب، يكثر فيها الغريب في مواضع وتسهل في مواضع، غزيرة المعنى، دقيقة الوضع والوصف إلى حد الإسهاب الممل، هي من أجود المعلقات السبع، تمثل حياة صاحبها الخاصة ونفسيته، والمثل الأعلى في الحياة الجاهلية، وهذا مكتسب من المحيط وتقاليده، وقد أسهب في وصف ناقته، فأغرب في الألفاظ والمعاني لاضطراره إلى ألفاظ وضعية، وأهم ما يلفت النظر في معلقته، نظره إلى الحياة ويأسه منها، ومعرفته أنه فانٍ، فلماذا لا يتلذذ في حياته ويقابل منيَّته بكل ما يملك، ثم يعلن رغبته في الحياة لثلاثة أسباب هي لذاته الثلاث: الحب والشرب والحرب.

زهير بن أبي سلمي:

نسبه:

زهير بن أبي سلمى المزني، نشأ في غطفان، وإن كان نسبه في مزينة، فهو شاعر قيسي مضري، جلُّ أهل بيته شعراء، رجالًا ونساء، أخذ الشعر والحكمة عن خال أبيه بشامة بن الغدير أحد أشراف غطفان.

كان خال أبيه بشامة هذا مقعدًا فلزمه زهير فتخلَّق بأخلاقه، وكان زهير حكيمًا طيب النفس، مؤثرًا للخير، محبًّا للسلم داعيًا إليه، ولو كانت

جائزة نوبل للسلم في زمانه لأخذها واستراح من تعب الفكر، وقد كان شعره عفيف القول، وجيز اللفظ، غزير الحكمة، تهذيب كثير، لا تعقيد ولا حشو، مدح صادق، لا سخف ولا هذر في كلامه، شديد الاعتماد على الحواس في إخراج صوره الشعرية، برز في الحكمة العامة والأمثال، وقد يكون شق الطريق لمن جاءوا بعده وقالوا الحكمة في شعرهم، وقد قال زهير معظم شعره في مدح هرم بن سنان، وهو سيد غني توسط مع الحارث بن عوف في الإصلاح بين قبيلتي عبس وذبيان في حرب «داحس والغبراء»، ودفعا ديات القتلى من مالهما، وقد بلغت ٣٠٠٠ بعير.

معلقته:

وموضوعها: ذكر الديار، وصف رحيل الأحباب، وصف الحرب وشؤمها، ذكر حزنه، مدح هرم والحارث، وصف زهده في الحياة وسآمته، حكم عامة، وهى متينة الألفاظ والتعبير، أكثر أبياتها صور محسوسة، اعتمد عليها ليصل إلى غايته وهي المدح، ولذلك لم يبحث في معلقته بحث امرئ القيس وطرفة. ومع أن غرضه، وهو المدح، لا يمكنه من إظهار شخصيته، فقد استطاع أن يرينا شخصية إنسانية عامة النزعة في عهد لم يكن فيه أثر إلا أثر القبيلة، وانتقل إلى المدح بلا تخلص ولا حيلة، ومدح صاحبيه بطريقة قصصية، وقد أصاب؛ لأن سرد القصة الواقعية عن عمل نبيل كعملهما، هو أعظم مدح، وبعد أن امتدح عملهما وإصلاحهما بين قبيلتين كبيرتين أخذ يعرض أمامنا صوره في تقبيح الحرب، فجاءت هذه الصور أشبه بصور السينماء الناطقة حتى لتكاد تسمعك الضوضاء، ثم أعاد الكرَّة على صاحبيه فمدحهما حتى شبع، وبعد أن أخذ قسطًا قليلًا من الراحة وجَّه نظره إلى الإنسانية جمعاء فقال: سئمت تكاليف الحياة ...إلخ.

لبيد بن ربيعة:

حياته:

أبو عقيل، لبيد بن ربيعة، عامري، من قبيلة قيس، مضري، عمَّر طويلًا بدليل قوله:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

وقد عاش في الجاهلية عيشة الشعراء الفرسان الأغنياء، قال أكثر شعره في الجاهلية، ودخل الإسلام وشُغل بحفظ القرآن وتلاوته عن الشعر، ويقولون إنه لم يقل إلا بيتًا واحدًا في الإسلام، وكان جوادا، شجاعا، فاتكا، ورث الجود عن أبيه الملقب بربيعة المعترين، والشجاعة والفتك عن قبيلته، وقد عاش بعد فتح العراق في الكوفة عيشة وداعة وكرم، ينفق ماله على الضعفاء الجياع، حتى كان والي الكوفة يسأل الناس أن يعينوه على مروءته، وقد أرسل إليه كما يروى ١٠٠ ناقة بَكْرة؛ لأنه ألزم نفسه في الجاهلية «ألَّا تهبَّ الصَّبا إلا أطعم».

وبقي على ذلك في الإسلام، أما أغراض شعره: لم يقل الشعر إلا كما قاله الشعراء الفرسان، فلم يتكسب به، قاله بالفخر والفتوة والنجدة والكرم وإيواء الجار وعزة القبيل. في شعره الحكمة والموعظة، وفي رثائه التعزية والحكمة، وهو أحد الرثَّائين الثلاثة: المهلهل والخنساء، ويزيدهما بما يمزج به رثاءه من الحكم، وقد كان جزل الألفاظ، فخم العبارة، دقيق المعنى، لا لغو ولا حشو، لا غرابة لفظ ولا تعقيد معنى.

معلقته:

وأغراضها: ذكر الديار، وصف الناقة، وصف نفسه لاهيًا متغزلًا، جوادًا في السلم، باسلًا مخاطرًا في الحرب، والافتخار بنفسه وقومه ووصفهم بخير الخلال الجاهلية التي يتعشَّقها العرب، وهي تمثل الحياة ومطمح

أصحابها، والخلاصة أنه شاعر قوي يستمد قوته من صدقه وإخلاصه وإيمانه الشديد بالمثل العليا الأخلاقية البدوية التي يسمو إليها.

عمرو بن كلثوم:

حياته:

هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي، زعيم تغلب وفارسها وشاعرها، وأمه بنت مهلهل أخي كليب. نشأ بالجزيرة الفراتية شاعرًا خطيبًا. قاد قبيلته في «أيامٍ» جمَّة كان الظفر حليفه في معظمها، أما أيام تغلب فكانت مع أختها قبيلة بكر، إلى أن كان الصلح على يد عمرو بن هند آخر ملوك الحيرة من آل المنذر، ويقولون إنه بعد الصلح بقليل اجتمع وجوه تغلب وبكر في مجلس عمرو بن هند وتلاحوا حتى التشاتم، وإذ ذاك أنشد الحارث بن حلزة معلقته: «آذنتنا ببينها أسماء»، وبعد إنشادها خرج عمرو بن كلثوم غاضبًا من مجلس عمرو بن هند؛ لأنه رأى ميله مع البكريين، وكان أبيَّ النفس، عظيم الهوس والنخوة، جريء النفس عزيزها، لا يهاب إنسانًا ولو ملكًا، لا تستطيع أن تفصل شخصيته عن قبيلته في شعره، وشعره حسن اللفظ، منسجم العبارة، واضح المعنى، رشيق الأسلوب، حافل بفخر لا يضاهى، نبيل القصد والمرمى، يقول شعره لحاجة في نفسه.

معلقته:

وأغراضها: غزلية خمرية، قصصية؛ أي إنه يصف حادثته مع عمرو بن هند عندما حاول استخدام أمه، حماسية فخرية بالنفس والقوم، فيها شيء من ملامح الملاحم، وكما جاء في وصف شعره، لا غرابة فيها، اتفاق تام بين أغراضها وألفاظها ومعانيها، رنانة طنانة.

الحارث بن حلزة :

نسبه:

الحارث بن حلِّزة اليشكري، البكري، كان من اليشكريين كابن كلثوم من التغلبيين.

معلقته:

قيلت في مجلس عمرو بن هند كما تقدم، يقولون إنه قالها ارتجالًا — ولا أظن ذلك — دفاعًا عن قومه، وأغراضها: تغزُّل، وصف الناقة، مدح الملك عمرو بن هند، الفخر بقومه، وذكْر كثير من أيام العرب، تعييب بني تغلب، وهى مُحكَمة النسج، متينة السبك، وجيزة الوصف، رشيقة العبارة، بليغة — أي إنها تجمع معاني كثيرة في قليل من الألفاظ — كثيرة الغريب، عديدة الفنون، شديدة الارتباط.

عنترة بن شداد:

نسبه:

عنترة بن عمرو بن شداد العبسي، من الشعراء الفرسان، أحد أغربة الجاهلية؛ وهم: خفاف بن ندبة، وأبو عمر بن الحباب، وسليك بن السلكة. أبوه سيد عبسي، وأمُّه أمةٌ حبشية. نشأ عبدًا كعادة العرب في أبناء الإماء، وقد حررته شجاعته كما يروي لنا الرواة، كان بطل حرب داحس والغبراء، ومات بعد أن عمَّر طويلًا، وفي شعر عنترة إشارة إلى كل ما يرويه الرواة عنه، ولهذا يُشك في صحة نسبة كل هذا الشعر إليه، فهو يخبرنا في هذا الشعر عن عبوديته وعن فروسيته وعن سواده، وشعره سهل اللفظ بالنسبة للجاهليين، منسجم التركيب فخم، رنان الأسلوب، بعيد عن الكلام الوحشي، جليل الوصف، رقيق الغزل عفيفه.

معلقته:

وموضوعها: (١) ذكر الديار والأحباب (٢) الغزل (٣) وصف ناقته وجواده (٤) وصف شربه الخمر (٥) فخره بنفسه وسيفه (٦) اعتزازه بهما (٧) وصف النزال والطعن وتقتيل الفرسان (٨) عزته بقومه (٩) شتم شاتميه.

وأسلوب عنترة: هو أقرب الشعراء الجاهليين إلينا، فلسفته سهلة وعبارته هينة ومعانيه سامية، فهو لم يلهِ نفسه بالسفاسف، وما عالج إلَّا كلَّ موضوع أخلاقي، فوصف نفسه بأنه متنزه عن كل هذه الأشياء، وقد عمل بما قال، كل ذلك بصورة لطيفة ذات تشابيه واستعارات من حياة راقية، لا كما رأينا عند امرئ القيس مثلًا حين راح يشبه أصابع عنيزة بالديدان، ولا أثر للكلفة والتعمد في قصيدة عنترة، وقد خصَّصنا هذه القصيدة للبحث لأنها جامعة للصورة العنترية، ولا عيب فيها إلا الانتقال من غائب إلى مخاطب ولكن بصورة مستحبة، وهي لا تخلو من ألفاظ وإن كانت كريهة وقبيحة الوقع في السمع لكنها مفهومة. ينتقل سريعًا من موضوع إلى آخر، فتبدو قصيدته كأنها مفككة، وقد استعمل هذا العبد ألفاظًا جميلة مثل «دار لآنسةٍ» و«حامي الحقيقة»... إلخ.

فخره:

كان عنترة يفخر بنفسه ولا يخرج في شعره عن وصف ذاته، وسبب ذلك مركب النقص والكبت، فإذا فتشنا عن شاعر عربي مغرم بذاته «نرجسي» لم نجد له مثيلًا، ففخره يتناول جميع ما تفخر به العرب من شجاعة وجود وفروسية ودفاع عن الحوض، وقد كان عنترة في جهد جهيد من سواده وهو لا يعرف كيف يتخلص من نكبته، فإذا بإحساسه يجعله يشعر بأن هذا السواد لا بد له من ماحٍ، فلجأ إلى الصور الشعرية التي لم يوفق إليها أسود غيره؛ قال: يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر.

شعره الملحمي:

نلتقي مع هوميروس بقصة عنترة عندنا، وسيأتي الكلام على هوميروس، ونرى أن قصة الإلياذة شديدة الشبه بقصة عنترة. والناس مختلفون حول عنترة؛ فمنهم من ينكر وجوده كما أنكر بعضهم وجود هوميروس. وسيان عندنا أَوُجِد عنترة أم لم يوجد، فنحن ننظر إلى هذا الشخص الذي تعجبنا أخلاقه وفروسيته فنحبه ونعجب به، وأخيرًا نقول في هذا البطل: سيان عندنا أكان هجينًا، أم كان غرابًا، مشقوق الشفة، وماذا تهمنا أمه، فلتكن زبيبة، أو زيتونة، أو تفاحة، المهم خلق الرجل وشجاعته، وهذان لا يشك بهما أحد، وإذا لم يكن قد وُجد، فالفضل للذي أوجده، ولا بأس علينا إذا كرمناه كما نكرم الجندي المجهول، هبْ أنه شخص روائي مثل شخوص سرفنتس وموليير والجاحظ، أفما صار هؤلاء كالأشخاص الأكابر الذين عاشوا على وجه الأرض؟ فلينعم عنترة بالًا.

****

الفصل الثاني
مدخل إلى الشعر الإسلامي

مفهوم الأدب الإسلامي

ظهر في العصر الإسلاميّ المُمتدّ من بعثة النبي محمّد _صلّى الله عليه وسلم_ وحتّى أواخر عصر الخلفاء الراشدين الذي انتهى بمقتل علي بن أبي طالب، مفهوم جديد للأدب يُعرف بالأدب الإسلاميّ، وقد شكّل هذا المفهوم نقلة نوعيّة على مستوى الألفاظ والمضامين والأساليب الفنية في النّظم والكتابة، فالأدب الإسلامي أدب وُضعَ لبيان اعتقاد الإسلام وتعاليمه السّمحة بالمعنى الشامل، وهو ينبع من روح الإسلام ومبادئه، ينطلق فيه الأديب من التصوّر الإسلاميّ السليم للكون والحياة والإنسان.

والأدب الإسلامي هو أدب تمثّل بروح الإسلام الغضَّة في لفظِهِ ومضمونِهِ، فكما دار في مضمونه حولَ فكرة الصّراع العقيدي الذي دار بين المسلمين والكفّار في عهد الرسول –صلّى الله عليه وسلم– ، والزّهد في الحياة الدنيا والرّغبة في نيل الآخرة والنّجاة يوم القيامة، فإنّ الألفاظ في الأدب الإسلامي قد تحلّت بروح الإسلام حيث هذّبت الآداب من فاحش القول وقبيح الكلم الذي كان شائعًا في الجاهليّة؛ لا سيّما في شعر الهجاء، كما انكبّ الشُّعراء الإسلاميون على الاقتباس من القرآن الكريم، ما يدعّم منطقهم وفصاحة أشعارهم، لا سيّما وأنّ القرآن الكريم قد تميّز بالفصاحة والبلاغة التي عجز أهلها عن الإتيان بمثلها في كلامهم ومنطقهم.

نشأة الأدب الإسلامي:

عَرف العرب الأدب قبل الإسلام في العصر الجاهليّ، وكانت له مضامينه الفنيّة المعروفة، إلّا أنّ البعثة الإسلاميّة ونزول القرآن كان

لهما الأثر الواضح في توجيه المسيرة الأدبية آنذاك، فقد كان للقرآن موقف صارِم من الشُّعراء، حيث قال تعالى: "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ"، فالدين الإسلاميّ ينبُذ الكذب والمبالغات التي كانت شائعة ومألوفة لدى الشعراء، ويأخذ على الشعراء انسياقهم وراء رغباتهم، إذ تراهم يعلون من شأن المُنحطّ قدرًا ويحطّون من شأن من علا قدرًا ومكانة، لمجرّد رغبتهم بذلك.

وهذا لا يعني أنّ الإسلام قد حرّم الشّعر وقوله، فقد ميّز الله تعالى في كتابه الكريم بين نوعين من الشّعراء؛ أوّلهم هؤلاء الغاوون الذين يُفسدون في الأرض بألسنتهم، وثانيهم المُؤمنون الذين ينظمون شعرًا نافعًا يحثّون فيه على القيم والخلق الحميد ولا يتفوّهون بالترّهات، حيث يقول تعالى:"إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ".

وقد تجلّى أثر الإسلام واضحًا في أشعار المُؤمنين ونثرهم، وذلك من خلال المضامين التي توجّه الأدباء للنّظم فيها، والتي تقوم على دعْم الدّين الإسلاميّ ومبادئه والحثّ على الخلق الحميد ونبذ خلق الجاهلية، ومُؤازرة المُسلمين في قتالهم ومدح النبيّ _صلّى الله عليه وسلّم_، والردّ على المُشركين والتصدّي لهم ومُحاربتهم بسلاح القول حتى بدت هذه المضامين أهدافًا من أهداف الأدب الإسلاميّ، كما ساهم شعراء المسلمين في إذاعة الإسلام وشيوعه؛ ذلك لأنّ الشعر كان يُعدّ أكبر وسيلة إعلاميّة في ذلك الوقت.

الشعر في العصر الإسلامي:

لم يكن الشعر الإسلاميّ شعر مَوقف فحسب، فقد أصبح يُمثّل عصرًا بأكمله ترسّخت فيه تقاليد الشعر التي أسّسها شعراء الإسلام الأوائل كحسان بن ثابت وكعب بن زهير، وامتدّت آثارها في عصور الأدب التّالية كالعصر الأموي، وكذلك العصر العباسي، ونظَم شُعراء هذا العصر في موضوعات الأدب الإسلاميّ التي تتضمّن جوانب الحياة المُختلفة، فبدا الشّعر في العصر الإسلاميّ شعرًا واقعيًّا يجمع إلى جانب الفكرة السامية القِيم الجماليّة التي كفلت للشّعر فنيّته وغنائيّته.

ولعلّ تشجيع الرسول –صلّى الله عليه وسلّم– للشُّعراء على قَوْل الشعر يُعدّ من أبرز أسباب ازدهار الشّعر في العصر الإسلاميّ، فقد اتّخذ إلى جانبه عددًا مِن شعراء المسلمين مثل حسان بن ثابت –رضي الله عنه– ودفعهم للتصدي للمشركين بسلاح القول، حيث قال ردًّا على عمر بن الخطاب حين شهده يُوبّخ عبد الله بن رواحة على قوله الشعر ردًّا على الكفار في حضرة النبي –صلى الله عليه وسلم–: "خل يا عمر فهو أسرع فيهم من نضج النبل"، وبعد وفاته تابع الخلفاء الراشدون اهتمامهم بالشّعر والشُّعراء الذين سجلوا بأشعارهم أعظم الأحداث؛ كحروب الردة التي جرت في عهد الخليفة أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– وموقعة الجمل التي قُتل فيها علي بن أبي طالب وحادثة مقتل عثمان، وغيرها الكثير ممّا يشهد بتأييد الإسلام للشعر وحثّه الدائم للشعراء عليه.

خصائص الشعر في العصر الإسلامي:

بدا الشعر في العصر الإسلامي بعيدًا عن العاطفية و الخيال؛ وذلك لأنّه بدا شعر قضيّة تحتاجُ لمُؤازرةِ الشّاعر قلبًا وعقلًا لإنجاح ما

يدعو إليه والحث عليه، لذلك فإنّ الميل العاطفي في هذا اللون من الشعر قليلٌ، بينما تَسوده الجديّة والواقعيّة والمصداقيّة، ومن أهم هذه الخصائص ما يلي:

-الاستناد إلى المنطق والبرهان:

فقد ارتكز شعراء العصر الإسلامي على المنطق واستخدام أسلوب الحِجَاج وذلك لدعم المبادئ الإسلاميّة التي يتغنّى بها الشّعر في شعره، والردّ على جدل الخصوم من شعراء الكفار والمُشركين، والتصدّي لهم بما يلتمسه من البراهين التي يجدها كفيلة بإسكاتهم.

-اتباع الأساليب الجاهلية في شعر الهجاء تحديدًا:

فقد استثمر شعراء العصر الإسلامي المبادئ والسمات التي يعتز بها الجاهليون وأخذوا بثلبها والانتقاص منها وذلك لأنّها كانت أشدّ وقعًا وإيلامًا لنفوس الكُفّار والمُشركين، بينما لن يؤثر فيهم الانتقاص منهم في صلْب عقيدتهم الوثنيّة، ولا عقليّتهم المُقلّدة لمناهج الآباء والأجداد.

-الوضوح:

وهي من أبرز خصائص أدب الدّعوة الإسلاميّة، حيث البُعد عن التعقيدات والرموز والأوهام التي نلتمسها في الأدب العربي الحديث وكذلك في الآداب الغربيّة، ولعلّ تركيز الشّعراء الإسلاميّين على الفكرة و الاهتمام بطُرق إيصالها للسامع، وتجنب الوحشيّ والغريب من الألفاظ كان سببًا رئيسًا في وضوح أشعارهم.

-مواكبة الشعر للأحداث:

فشعراء العصر الإسلاميّ كانوا في حالة تأهُّب دائم لِمُؤازرة الإسلام والمُسلمين، فهم يُرافقون النبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– ويقومون بالتصدّي والردّ على المشركين، ولعلّ هذه الخاصيّة قد برزت بوضوح بعد مقتل عثمان بن عفان–رضي الله عنه– وظهور الفتن، حيث تحوّل الشعر الإسلاميّ آنذاك إلى شعر سياسي.

–شيوع شعر المقطوعات:

فبعد المطوّلات الجاهليّة وشعر المعلقات مال الشُّعراء في عصر صدر الإسلام لنظْم المقطوعات القصيرة –لا سيّما فيشعر الفتوح– الذي كثُر فيه القصائد، بينما قصرت مُحاولة تسليط الضّوء على حدث أو ظاهرة ما في تلك الفتوحات، ولعل الظروف الواقعية التي تسبّبت بانشغال الشعراء في المعارك والفتوح والعمل هي التي فرضت على شعراء الإسلام نظم المقطوعات دون المطولات.

–جزالة الألفاظ:

تعدّ هذه السمة من أبرز سمات الشعر الإسلاميّ، حيث أخذت تختفي تلك الألفاظ الوحشيّة الغريبة التي كانت تَشيع في شعر الجاهليّة، ومال الشعراءُ الإسلاميّون لانتقاء الألفاظ الشائعة الدّارجة لتكون واضحة للأذهان، كما أنّهم حافظوا على شروط الفصاحة والبلاغة في نظْمهم لتلك الألفاظ فبَدَت قويّة واضحة، وجاءت القصيدة متينة الأسلوب، قوية اللفظ.

أغراض الشعر في العصر الإسلامي:

–المديح:

لقد تابع شعراء العصر الإسلاميّ شعراء الجاهليّة في النّظْم في غرض المدح، إلّا أنّهم لم يتوجهوا به لمدح الملوك والأفراد للتكسب وغيره، بل استثمروه للإشادة بالإسلام ورسول الله –صلّى الله عليه وسلم– والإشادة بقادة الجيوش الفاتحين، وبدا مدحهم صادقًا بعيدًا عن المُغالاة والنّفاق والتكسُّب.

–الهجاء:

هو من الأغراض الشعرية التي عرفها شعراء الجاهلية ونظموا فيها، وظلت في العصر الإسلامي إذ يُعدّ شعر الهجاء سلاحًا فتّاكًا استخدمه شعراء المسلمين لتحقيق أبرز أهداف الأدب الإسلاميّ؛ كالمُنافحة عن الدين الإسلاميّ والتصدّي للمُشركين وإحباط هجومهم، إلا أنّه اختلف عن الهجاء في العصر الجاهليّ، حيث تخلّص من بذيء اللّفظ وفحْش الكلام.

–الحماسة:

يُعدّ شعر الحماسة من أبرز موضوعات الأدب الإسلاميّ، التي كانت موجودة في الجاهلية، إلا أنّه لم يفرد له قصائد مُستقلّة إلّا في العصر الإسلامي، حيث وظّفه الشعراء لتشجيع المُقاتلين المسلمين، فهو يعتزّ بانتصاراتهم على الأعداء، ويلهب روح الثّورة في قلوب المُقاتلين.

–الرثاء:

يُعدّ الرّثاء من الأغراض الشعريّة التي نظم فيها شعراء الجاهلية وظلت لينظم فيها أدباء العصر الإسلامي، حيث أبقت عليها الظُّروف والأحداث المستعرة التي كان يصحبها الكثير من الشّهداء الذين بذلوا أنفسهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى، وقد تناول فيها الشعراء محاسن

موتاهم ونيلهم الشهادة في سبيل الله والجزاء الجميل الذي ينتظرهم عند الله يوم القيامة.

-شعر الدعوة والفتوح:

يُعدّ هذا الغرض من أبرز أغراض الشعر التي حفظتها مصادر الأدب الإسلامي كَغَرض أدبيّ مستحدث في العصر الإسلامي، وظّفه الشّعراء في خدمة نشر الإسلام والدّعوة إليه، كما قام الشُّعراء بتأريخ فتوحات المُسلمين وانتصاراتهم وتخليد أمجادهم وأسماء الشهداء والقادة.

****

الفصل الثاني
أهم شعراء العصر الإسلامي

أولا: حسان بن ثابت:

حسان بن ثابت الأنصاري شاعر عربي وصحابي من الأنصار، ينتمي إلى قبيلة الخزرج من أهل المدينة، كما كان شاعرًا معتبرًا يفد على ملوك آل غسان في الشام قبل إسلامه، ثم أسلم وصار شاعر الرسول ﷺ بعد الهجرة، وقد توفي أثناء خلافة علي بن أبي طالب بين عامي ٣٥ و٤٠ هـ.

حياته ونسبه:

هو: أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، من قبيلة الخزرج، التي هاجرت من اليمن إلى الحجاز، وأقامت في المدينة مع الأوس. ولد في المدينة قبل مولد الرسول ﷺ بنحو ثماني سنين، فعاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة أخرى، وشب في بيت وجاهة وشرف، منصرفًا إلى اللهو والغزل، وهو من بني النجار أخوال عبد المطلب بن هاشم جد النبي محمد من قبيلة الخزرج، ويروى أن أباه ثابت بن المنذر الخزرجي كان من سادة قومه، ومن أشرفهم، وأما أمه فهي الفزيعة بنت خنيس بن لوزان بن عبدون وهي أيضا خزرجية، وقد ولد سنة:٦٠ قبل الهجرة على الأرجح، صحابي وكان ينشد الشعر قبل الإسلام، وكان ممن يفدون على ملوك الغساسنة في الشام، وبعد إسلامه اعتبر شاعر النبي محمد بن عبد الله، وأهدى لهُ النبي جارية قبطية قد اهداها له المقوقس ملك القبط، واسمها سيرين

بنت شمعون، فتزوجها حسان، وأنجبت منهُ ولدهُ البكر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وحسن إسلامها وهي أخت زوجة الرسول مارية القبطية.

ولقد سجلت كتب الأدب والتاريخ الكثير من الأشعار التي ألقاها في هجاء الكفار ومعارضتهم، وكذلك في مدح المسلمين ورثاء شهدائهم وأمواتهم. وأصيب بالعمى قبل وفاته، ولم يشهد مع النبي مشهدًا لعلة أصابته ويعد في طبقة المخضرمين من الشعراء لأنه أدرك الجاهلية والإسلام.

حسان بن ثابت قبل الإسلام:

كانت المدينة في الجاهلية ميدانًا للنزاع بين الأوس والخزرج، تكثُر فيها الخصومات والحروب، وكان قيس بن الخطيم شاعر الأوس، وحسان بن ثابت شاعر الخزرج، الذي كان لسان قومه في تلك الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية، فصارت له في الجزيرة العربية شهرةٌ واسعة، وقد اتصل حسان بن ثابت بالغساسنة، يمدحهم بشعره، ويتقاسم هو والنابغة الذبياني وعلقمة الفحل أعطيات بني غسان، وقد طابت له الحياة في ظل تلك النعمة الوارفة الظلال، ثم اتصل ببلاط الحيرة وعليها النعمان بن المنذر، فحلَّ محلَّ النابغة، حين كان هذا الأخير في خلاف مع النعمان، إلى أن عاد النابغة إلى ظل أبي قابوس النعمان، فتركه حسان مكرهًا، وقد أفاد من احتكاكه بالملوك معرفةً بشعر المديح وأساليبه، ومعرفة بشعر الهجاء ومذاهبه، ولقد كان أداؤه الفني في شعره يتميز بالتضخيم والتعظيم، واشتمل على ألفاظ جزلة

قوية، وهكذا كان في تمام الأهبة للانتقال إلى ظل محمد نبي الإسلام، والمناضَلة دونه بسلاحَي مَدْحِه وهجائه.

حسان بن ثابت في الإسلام:

لما بلغ حسان بن ثابت الستين من عمره، وسمع بالإسلام، دخل فيه، وراح من فوره يرد هجمات القرشيين اللسانيَّة، ويدافع عن محمد والإسلام، ويهجو خصومهما، قال يومًا للأنصار:«ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟!" فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال عليه السلام: "والله ما يسرني به مِقْول بين بصرى وصنعاء"»

ولم يكن حسان بن ثابت وحده هو الذي يرد غائلة المشركين من الشعراء؛ بل كان يقف إلى جانبه عدد كبير من الشعراء الذين صحَّ إسلامهم، وكان النبي يثني على شعر حسان، وكان يحثُّه على ذلك ويدعو له بمثل: «اللهم أيده بروح القدس»، وعطف عليه وقرَّبه منه، وقسم له من الغنائم والعطايا، إلا أن حسان بن ثابت لم يكن يهجو قريشًا بالكفر وعبادة الأوثان؛ وإنما كان يهجوهم بالأيام التي هُزِموا فيها، ويُعيرهم بالمثالب والأنساب، ولو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغًا، ومما لا شك فيه أن حسانَ بن ثابت كان يحظى بمنزلةٍ رفيعةٍ، يجلُّه الخلفاء الراشدون ويفرضون له في العطاء في الوقت نفسه، فإننا لا نجد في خلافة أبي بكر- رضي الله عنه- موقفًا خاصًّا من الشعر، ويبدو أن انشغاله بالفتوحات وحركة الردَّة لم تدَع له وقتًا يفرغ فيه لتوجيه الشعراء أو الاستماع إليهم، في حين نجد أن عمر بن الخطاب يحب

الشعر، خاصةً ما لم يكن فيه تكرار للفظ والمعنى، وقد روِي عن كلٍّ من الخليفتَين الراشدَين عددٌ من الأبيات.

حسان بن ثابت يؤيده الروح القدس:

قال رسول الله ﷺ: «"اهجُ قريشًا، فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل"، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: "اهجهم"، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنَبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحقَ! لأفرينَّهم بلساني فرْيَ الأديم، فقال رسول الله: "لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبًا، حتى يلخص لك نسبي"، فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق!! لأسلنَّك منهم كما تسل الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله"، وقالت: سمعت رسول الله يقول: "هجاهم حسان، فشفى واشتفى"»

شـــعره:

اشتهرت مدائحه في الغسانيين قبل الإسلام، ومن أشهر ما وصلنا من تلك القصائد، لاميته التي جاء فيها:

لله درّ عصابةٍ نادمتهـــــــــم	**يومًا بجلَّقَ في الزمـــان الأولِ**
أولاد جفنة حـــــول قبر أبيهمُ	**قبر ابن مارية الكريم المفضلِ**
يسقون من ورد البريص عليهمُ	**بردَى يصفّق بالرحيق السلسلِ**
بِيضُ الوجوه كريمةُ أحسابهـــم	**شمَ الأنوف مـن الطراز الأولِ**

يغشون حتى ما تهرّ كلابهـــــم	**لا يسألون عن السواد المــقبلِ**

ويؤكد الناقدون أن ما نظمه حسان بعد إسلامه افتقر إلى الجزالة وقوة الصياغة التي كانت له في الجاهلية، ولكنه في مقابل ذلك كان يتمتع بقدر كبير من الحيوية والرقة والسلاسة، ويتوهج من حين إلى آخر بتدفق عاطفي يكشف عما في قلبه من دفء وحرارة، ويتفق النقاد على أن أساليب حسان بن ثابت بعد إسلامه قد سلمت من الحوشية والأخيلة البدوية، ولكن خالطها لين الحضارة، ولم تخل في بعض الأغراض من جزالة اللفظ وفخامة المعنى والعبارة كما في الفخر والحماسة والدفاع عن النبي ورسالته ومعارضته المشركين وهجومهم.

ويقول الناقد محمد مصطفى سلام: "لقد غلبت على أساليب حسان الشعرية الصبغة الإسلامية كتوليد المعاني من عقائد الدين الجديد وأحداثه والاستعانة بصيغ القرآن وتشبيهاته ولطيف كناياته، وضرب أمثاله، واقتباس الألفاظ الإسلامية من الكتاب والسنة وشعائر الدين، كما غلبت عليها الرقة واللين والدماثة واللطف وسهولة المأخذ وواقعية الصورة وقرب الخيال، وأكثر ما نرى ذلك في شعر الدعوة إلى توحيد الله وتنزيهه، وتهجين عبادة الأوثان، ووصف الشعائر الإسلامية وذكر مآثرها وبيان ثواب المؤمنين وعقاب المشركين وبعض ما مدح به الرسول أصحابه أو رثاهم به"، وقال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي في النبوة وشاعر اليمانيين في الإسلام، وقال المبرد في الكامل: أعرق قوم في الشعراء آل حسان فإنهم يعدون ستةً في نسق كلهم شاعر وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام.

حادثة الإفك:

كان حسان بن ثابت ممن خاض في حادثة الإفك، فقد روى أبو داود بسند حسنه الألباني أن عائشة رضي الله عنها عندما قالت: لما نزل عذري، قام النبي –صلى الله عليه وسلم– على المنبر، فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين وامرأة فضربوا حدهم، وكان من بينهم حسان بن ثابت، وقد روى مسلم عن عائشة أنها قالت: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وقد بينت الروايات أن من خاض في الإفك قد تاب –ماعدا ابن أبي المنافق– وقد اعتذر الشاعر حسان بن ثابت، –رضي الله عنه–، عما كان منه، وقال يمدح عائشة –رضى الله عنها–بما هي أهل له، في أبيات قويات تعكس توبة الشاعر توبة تصوحة، فقال:

حَصـــــــانٌ رَزانٌ ما تُزِنُّ بِريبَةٍ	وَتُصبِحُ غَرثى مِن لُحومِ الغَوافِلِ
عَقيلَةُ حَيٍّ مِن لُؤَيِّ بنِ غـــالِبٍ	كِرامِ المَساعي مَجدُهُم غَيرُ زائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَد طَيَّبَ اللَهُ خَيمَـــــــها	وَطَهَّرَها مِـــــن كُلِّ سورٍ وَباطِلِ
فَإِن كُنتُ قَد قُلتُ الَّذي قَدَ زعَمتُمُ	فَلا رَفَعَت صَوتي إِلَيَّ أَنامِـــــلي
فَكَيفَ وَودّي مـــا حَييتُ وَنُصرَتي	لِآلِ رَسولِ اللَهِ زَينِ المَحـــــافِلِ
لَهُ رَتَبٌ عالٍ عَلى الناسِ كُلِّهـــمِ	تَقاصَرُ عَنهُ سَورَةَ المُتَطـــــاوِلِ
فَإِنَّ الَذي قَـــــد قيلَ لَيسَ بِلائِطٍ	وَلَكِنَّهُ قَولُ اِمرِئٍ بِيَ مـــــــاحِلِ

النحل على لسانه:

نظرًا لمكانته كشاعر الرسول، فقد لقي حسان بن ثابت من نحل الأبيات والقصائد على لسانه ما لم يلقه كثير من الشعراء، كما أدت المنافسة بين قريش والأنصار في عهد بني أمية، ثم الصراع بين القبائل

اليمانية (الذين منهم الخزرج قوم حسان) والقيسية إلى المزيد من القصائد المختلقة على لسانه. وقد أشار إلى ذلك النقاد الأولون، يقول ابن سلام الجمحي: «وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد. لما تعاضدت قريش واستبت، وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنقى» وقد حذف ابن هشام من ابن إسحاق خمس عشرة قصيدة منسوبة إلى حسان، عشر منها قد وردت في ديوانه، ويقدّر أحد الباحثين المعاصرين نسبة الأشعار المنحولة في ديوان حسان بن ثابت بما بين ٦٠ و ٧٠%.

أغراض شعر حسان بن ثابت

أكثر شعر حسان في الهجاء، وما تبقى في الافتخار بالأنصار، ومدح رسول الله محمد والغساسنة والنعمان بن المنذر وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم، ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل، إلا أنه منذ إسلامه التزم بمبادئ الإسلام، ومن خلال شعر حسان بن ثابت نجد أن الشعر الإسلامي اكتسب رقةً في التعبير بعد أن عمَّر الإيمان قلوبَ الشعراء، وهي شديدة التأثير بالقرآن الكريم والحديث الشريف مع وجود الألفاظ البدوية الصحراوية.

ومهما استقلَّت أبيات حسان بن ثابت بأفكار وموضوعات خاصَّة، فإن كلاً منها يعبر عن موضوع واحد؛ هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهم، وسنقسم شخصية حسان بن ثابت الشعرية إلى أربعة أقسام، هي:

شعر حسان بن ثابت القبلي:

قبل أن يدخل حسان بن ثابت في الإسلام كان منصرفًا إلى الذود عن حياض قومه بالمفاخرة، فكان شعره القبلي تغلب عليه صبغة

الفخر، أما الداعي إلى ذلك فالعَداء الذي كان ناشبًا بين قبيلته والأوس، ولقد كان لفخر حسان نفحة عالية واندفاعًا شديدًا.

ارتباط حسان بن ثابت بالغساسنة:

اتصل حسان بالبلاط الغساني، فمدح كثيرًا من أمراء غسان، أشهرهم عمرو الرابع بن الحارث، وأخوه النعمان، ولاسيما جبلة بن الأيهم، وقد قرب الغساسنة الشاعر، وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا، وجعلوا له مرتبًا سنويًّا، وكان هو يستدر ذلك العطاء بشعره،

بعد دخول حسان بن ثابت الإسلام:

نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الإسلامي، والرد على أنصار الجاهلية، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية، فكان الشعر شعر نضال يهجو فيه الأعداء، ويمدح فيه رجال الفريق، ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء؛ بل للدفاع عن الرسول الكريم وهذا ينقسم لقسمين:

١- المدح

نجده في شعر حسان لهذا العهد، فهو مقصور على النبي وخلفائه وكبار الصحابة، والذين أبلَوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسنًا، وهو يختلف عن المدح التكسُّبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقَة والعقيدة النفيسة، قال حسان:

أغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَـــــــــــاتَمٌ	مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ ويُشْهـــــــدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلـــى اسمـهِ	إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤذِّنُ أشْهَـــدُ
وشقّ لهُ منِ اسمهِ ليجلـــــــــهُ	فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمـــــــدُ

نَبيٌّ أتَانَا بَعْدَ يَأسٍ وَفَـــــــــــتْرَة	منَ الرسلِ والأوثانِ في الأرضِ تعبدُ
فَأمْسَى سِرَاجاً مُسْتَنِيرًا وَهَادِيـــــــــًا	يَلُوحُ كما لاحَ الصّقِيلُ المُـــــــهَنَّدُ
وأنذرنا ناراً، وبشرَ جـــــــــــنة	وعلمنا الإسلامَ فاللهَ نحمـــــــــــدُ
وأنتَ إلهَ الخلقِ ربي وخالـــــــــقي	بذلكَ ما عمرتُ في الناسِ أشهـــــدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ الناسِ عن قَوْل مَن دَعا	سِوَاكَ إلهاً أنْتَ أعْلَى وَأمْجَـــــــدُ
لكَ الخلقُ والنعماءُ والأمرُ كلـــــــهُ	فإيّاكَ نَسْتَهْدي وإيّاكَ نَعْبُـــــــــدُ

وأما الهجاء النضالي فقد وجهه إلى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمدًا، وكان موقف الشاعر تجاههم حربًا لما بينهم وبين محمد من نسب.

٢- الهجاء:

فقد كان يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية، ويجعله فيهم طائرًا غريبًا يلجأ إليها كعبد، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعنًا شنيعًا، ثم يسدد سهامه في أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقًا في إقذاع شديد، ويخرج ذلك الرجل موطنًا للجهل والبخل والجبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك.

وفاة حسان بن ثابت:

توفي حسان بن ثابت في المدينة ما بين عامي ٣٥ و٤٠ هـ في عهد علي بن أبي طالب عن عمر ناهز المائة والعشرين عامًا. ورجح بعض المؤرخين، أن حسان ابن ثابت: توفي في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان ما بين عام: ٥٠ هـ وعام ٥٤ هـ.

****

ثانياً: كعب بن زهير (؟؟؟- ٢٦ هـ = ٦٤٦م):

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى، المزني، شاعر مخضرم من أشهر قصائده اللامية التي مطلعها بانت سعاد.

حياته:

شاعر مخضرم عاش عصرين مختلفين، هما: عصر ما قبل الإسلام وعصر صدر الإسلام، عالي الطبقة، كان ممن اشتهر في الجاهلية ولما ظهر الإسلام هجا النبي محمد، وأقام يشبب بنساء المسلمين، فأهدر دمه فجاءه كعب مستأمناً وقد أسلم وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول، فعفا عنه النبي، وخلع عليه بردته، وهو من أعرق الناس في الشعر: فأبوه زهير بن أبي سلمى، وأخوه بجير وابنه عقبة وحفيده العوّام كلهم شعراء، وقد كَثُر مخمّسو لاميته ومشطّروها وترجمت إلى غير العربية.

تلقن كعب الشعر عن أبيه مثله مثل أخيه بجير، وكان زهير يحفظهم الشعر منه شعره، ويقولون عن كعب أنه كان يخرج به أبوه إلى الصحراء، فيلقي عليه بيتا أو سطرا ويطلب أن يجيزه تمرينا ودرّبه، كما أن كعبا كان في عصر ما قبل الإسلام شاعرا معروفا، أكثر من الحطيئة، حاول كعب أن ينظم الشعر منذ حداثته فردعه أبوه، مخافة أن يتسفّل، ويأتي بالضعيف فيشوّه مجد الأسرة، وما زال يهذّب لسانه ويجهّز شاعريته برواية الشعر حتى استقام له النظم.

نسبه:

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رياح بن العوام بن قُرط بن الحارث بن مازن بن خلاوة بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن لاطم بن عثمان بن مزينة– ١٣ ق. هـ / ? – ٦٠٩ م.

أمه امرأة من بني عبد الله بن غطفان يقال لها كبشة بنت عمار بن عدي بن سحيم، وهي أم كل ولد زهير.

سنة ولادته ووفاته:

تاريخ مولد شاعر الإسلام كعب بن زهير مجهول تقريبا، إلا أن كثيراً من مراجع التاريخ والأدب أكدت أن كعب بن زهير بن أبي سلمى توفي نحو سنة ٦٦٢م / ٢٤ هـ.

شعره:

كعب بن زهير بن أبي سلمى أحد الفحول المخضرمين، وكان كعب قد بلغ من الشعر والشهرة حظا مرموقا حين دعاه النبيَّ إلى الإسلام، وإذا اسلم أخوه بجير، وبّخه واستحثه على الرجوع عن دينٍ لم يكن عليه أحد من أبائه، فهجاه كعب ثم هجا النبي، فسمع شعره فتوعده وأهدر دمه، فهام كعب يترامى على القبائل أن تجيره فلم يجره أحد، فنصحه أخوه بالمجيء إلى النبي مسلما تائبا، فرجع بعد أن ضاقت الأرض في وجهه، وأتى المدينة وبدأ بأبي بكر ودخل المسجد وتوسل به إلى الرسول فأقبل به عليه وآمن وأنشد قصيدته المشهورة (بانت سعاد)، فعفا عنه النبي، وخلع عليه بردته فسميت قصيدته بـ (البردة)، ثم حسن إسلامه وأخذ يصدر شعره عن مواعظ وحكم متأثرا بحكم القرآن، وظهرت المعاني الإسلامية في شعره من أن الله هو رازق لعباده وغير ذلك.

إسلامه:

إسلام كعب قصة ترويها بعض كتب التاريخ العربي وتراجم الأدباء العرب، فعندما جاء الإسلام اسلم بجير، وبقي كعب على دينه، ووقف في الجبهة المعادية للرسول وللمؤمنين به، ولم ينج بجير بسبب إسلامه من لسان كعب، فهجاه لخروجه على دين آبائه وأجداده فرد عليه بجير وطالبه باتباع الدين الإسلامي لينجو بنفسه من نار جهنم، لكنه ظل على دينه إلى أن فتحت مكة فكتب إليه بجير يخبره بأن الرسول قد أهدر دمه، وقال له: "إن النبي قتل كل من آذاه من شعراء المشركين وإن ابن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب قد هربا، وما أحسبك ناجيا، فإن كان لك في نفسك حاجة فأقدم على رسول الله فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا"، وعندما قرأ كعب كتاب أخيه ضاقت به الدنيا،، فلجأ إلى قبيلته مزينة لتجيره من النبي فأبت عليه ذلك، وعندئذ استبد به الخوف وأيقن انه مقتول.

لما قدم الرسول من منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن الرسول قتل رجالاً بمكة، ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش، قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فطِر إلى رسول الله، فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك من الأرض؛ وفي رواية أخرى أنه لما بلغ كعبا كتاب أخيه ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدُوَه، فقالوا: هو مقتول، فلما يجد من شيء بُدّا، خرج حتى قَدِم المدينة، فنزل على رجل كانت بينَهُ وبينه معرفة، فغدا به إلى الرسول الصبح، فصلى معه، ثم أشار له إليه

فقال: "هذا رسول الله، فقم إليه فاستأمِنهُ"، فقام كعب إلى الرسول، حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان الرسول يعرفه، فقال: "يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمِنَ منك تائبا مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟" قال الرسول: نعم؛ قال: "أنا يا رسول الله كعب بن زهير"، ويروى: أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: "يا رسول الله، دعني وعدوَّ الله أضرِب عنقه"؛ فقال: دعه عنك، فإنه قد جاء تائبا، نازعا عما كان عليه، فاستأذن كعب النبي، وقال قصيدته المشهورة بـ(البردة)، التي يقول فيها:

بانَت سُعـــادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ	مُتَيَّمٌ إِثرَها لَـــــــم يُجزَ مَكبولُ
وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَـــلوا	إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكـــحولُ
هَيفاءُ مُقبِلَةً عَـــــــجزاءُ مُدبِرَةً	لا يُشتَكى قِصَرٌ مِنها وَلا طـــــولُ
تَجلو عَوارِضَ ذي ظَلَمٍ إِذا اِبتَسَمَت	كَأَنَّهُ مُنهَلٌ بِالراحِ مَعلـــــــــولُ
شُجَّت بِذي شَبَمٍ مِن مـــاءِ مَحنِيَةٍ	صافٍ بِأَبطَحَ أَضحى وَهُوَ مَشـــمولُ
يا وَيحَها خُلَّةً لـــــوَ أَنَّها صَدَقَت	مـــا وَعَدَت أَو لَو أَنَّ النُصحَ مَقبولُ
لَكِنَّها خُلَّةٌ قَد سيطَ مـــــن دَمِها	فَجعٌ وَوَلعٌ وَإِخـــــــلافٌ وَتَبديلُ
وَمـــا تَمَسَّكُ بِالوَصلِ الَّذي زَعَمَت	إِلّا كَما تُمسِكُ المـــــــاءَ الغَرابيلُ
كَانَت مَواعيدُ عُرقوبٍ لَـــــها مَثَلاً	وَمـــــــا مَواعيدُها إِلّا الأَباطيلُ
إِنَّ الرَسولَ لَسَيفٌ يُستَضاءُ بِـــــهِ	مُهَنَّدٌ مـــــن سُيوفِ اللَهِ مَسلولُ
في عُصبَةٍ مِن قُرَيشٍ قـــالَ قائِلُهُم	بِبَطنِ مَكَّـــــــةَ لَمّا أَسلَموا زولوا
زَالوا فَمـــــازالَ أَنكاسٌ وَلا كُشُفٌ	عِندَ اللِقـــــــاءِ وَلا ميلٌ مَعازيلُ
شُمُّ العَرانينِ أَبطالٌ لَـــــــبوسُهُمُ	مِن نَسجِ داوُدَ فـــي الهَيجا سَرابيلُ
لا يَقَعُ الطَعنُ إِلّا فـــــي نُحورِهِمُ	ما إِن لَهُم عَن حِياضِ المَوتِ تَهليلُ

قصائده:

إلى جانب قصيدته التي حققت له شهرة كبيرة "بانت سعاد" فإن لكعب بن زهير إنتاجا شعريا متنوعا، جمع بعضه أو معظمه في ديوان يحمل اسمه، أما موضوعات شعره فهي كغيرها من موضوعات الشعر الجاهلي، تتراوح بين الفخر والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وبعض الحكم، لكن النقاد يفرقون في شعره بين اتجاهين متباينين؛ لأن إسلام كعب قد غير في نهج شعره وأمده بكثير من الصور، ورقق ألفاظه ومعانيه حيث كان كعب في الجاهلية يميل إلى الشدة والتقعر وخاصة في وصف الصحراء وحيواناتها، بينما بعد الإسلام نراه كما يقول النقاد يميل إلى إرسال الحكمة وإلى الابتعاد عن الموضوعات الجاهلية.

****

ثالثاً: عبد الله بن رواحة:

صحابي بدري وشاعر وقائد عسكري، وأحد نقباء الأنصار الإثنا عشر، شارك في غزوات النبي محمد، وكان أحد الشعراء الذين يدافعون بشعرهم عن النبي محمد، استشهد في يوم مؤتة سنة ٨ هـ، وهو قائد المسلمين أمام الروم وحلفائهم الغساسنة.

سيرته:

ينتمي عبد الله بن رواحة بن كعب بن الخزرج، إلى بني الحارث أحد بطون قبيلة الخزرج الأزدية، وأمه أيضًا من بني الحارث، وهي كبشة بنت واقد بن عمرو، وكان ابن رواحة يُكنى بأبي عمرو، وقيل أبي محمد، وقيل أبي رواحة، وهو خال النعمان بن بشير، وأخو أبو الدرداء لأمه، وكان عبد الله بن رواحة من السابقين إلى الإسلام من الأنصار، وكان أحد نقباء الأنصار الإثني عشر عن بني الحارث من الخزرج في بيعة العقبة، وقد صحب النبي محمد بعد هجرته إلى يثرب، وقد آخى بينه وبين المقداد بن عمرو، خاض ابن رواحة مع النبي محمد غزوة بدر، وقد بعثه النبي محمد بعد المعركة ليُبشّر بني عمرو بن عوف وخطمة ووائل من الأنصار بالنصر، كما شارك في غزوات أحد والخندق وخيبر وصلح الحديبية، وشهد مع النبي محمد عمرة القضاء، وأمره النبي محمد يومها، فقال: «انزل فحَرِّك بنا الرِّكَاب»، فأنشد:

يا رب لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

وقد ولاّه النبي محمد عدة مهام، فاستخلفه على المدينة عندما خرج في غزوة بدر الموعد، وبعثه قائدًا لسرية من ثلاثين رجلاً لقتال أسير بن رزام اليهودي في خيبر، فقتله، كما بعثه النبي محمد خارصًا لتقدير زكاة

نخل وزروع خيبر، وكان ابن رواحة من القلة الذين يُحسنون الكتابة في يثرب، كما كان شاعرًا لبيبًا، فكان هو وحسان بن ثابت وكعب بن مالك يتولون الرد على من يهجون النبي محمد والمسلمين، ومن شعره في النبي محمد:

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم أن ما خانني البصر

واختاره النبي –صلى الله عليه وسلم– ليكون القائد الثالث للمسلمين في جيش الشام الذي واجه جيشًا من ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل من الروم والغساسنة في الشام، عسكر جيش المسلمين الذي قوامه ٣,٠٠٠ رجل بناحية معان، فبلغهم خبر جموع الروم، فاستشار القائد الأول زيد بن حارثة أصحابه فقالوا: «قد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف»، وابن رواحة ساكت، فسأله فقال: «إنا لم نسر لغنائم، ولكنا خرجنا للقاء، ولسنا نقاتلهم بعدد ولا عُدّة، والرأي المسير إليهم»، فبلغهم أن هرقل قد نزل بمؤاب، فشجع ابن رواحة المسلمين، وقال: «يا قوم، والله إن الذي تكرهون للتي خرجتم لها الشهادة»، ثم التقى الجيشان في مؤتة في جمادى الأولى سنة ٨ هـ، وواجه المسلمون موقفًا عصيبًا بسبب التفوق العددي للروم، فقُتل القائد الأول زيد بن حارثة، ثم القائد الثاني جعفر بن أبي طالب، فانتقلت الراية للقائد الثالث ابن رواحة الذي تردد قليلاً، ثم نزل ابن رواحة للقتال فطُعن، فاستقبل الدم بيده فدلك به وجهه، ثم اخترق الصفوف، وجعل يقول: «يا معشر المسلمين، ذُبُّوا عن لحم أخيكم»، فهاجم المسلمون حتى يدركوه، فلم يزالوا كذلك حتى أدركوه وقد مات مكانه، وقد مات ابن رواحة دون أن يعقب من الولد.

****

الفصل الثالث
مدخل إلى الشعر الأموي

حول الأدب الأموي

امتدَّ العصر الأمويّ إلى ما يقارب القرن من الزمان (٤١هـ – ١٣٢هـ)، وكانت أرض الدولة يومذاك شاسعة واسعة، استتبَّ الحكم فيها لبني أمية، بدءًا من معاوية بن أبي سفيان–رضي الله عنه– إلى الخليفة مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية في المشرق، وعلى إثر اتساع أرض الدولة توزع العرب في أرجائها فتعددت البيئات فيها ونشط الأدب بشعره ونثره.

العواملُ المؤثرة في الأدب في العصر الأموي:

ما هي أهم الأسباب التي دفعت عجلة الأدب في العصر الأموي؟ أسهمت بضعة عوامل في ازدهار الأدب في العصر الأموي، وألهبت قرائح الشعراء بخير ما جادت به حينئذ ومنها:

بيئات الشعر الأموي:

–الحجاز (مكة والمدينة):

وهما مركز الدولة الإسلامية منذ عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– فمكة قبلة المسلمين وعاصمتهم الروحيّة، والمدينة كانت حاضرة الخلافة لفترة طويلة من الزمن، وهي وإن فقدت أهميتها السياسية بعد أن نقلت الخلافة إلى الكوفة ثم الشام، إلا أن مكانتها في قلوب المسلمين والعرب لم تقل، وقد شهدتا حركة علمية وثقافية واسعة، وأرض الحجاز كانت أرضًا للخلافات والمعارضات والحركة الزبيريّة وقتذاك لا تخف عن أحد، وظهرت مجموعة من الشعراء غرّتهم حياة الترف واللهو وزهدوا في شعر السياسة إلى شعر الغزل والمجون، وكان إمامهم عمر بن أبي ربيعة.

-نجد وبوادي الحجاز:

ضعفت حركة الشعر في أرض نجد وبوادي الحجاز، فالعصبية القبليّة التي أذكت روح الشعر فيما مضى، قد ماتت واندثرت مع قدوم الإسلام، فضعف شعر الفخر والهجاء، وظهر الشعر الغزليّ العفيف بطريقة أو بأخرى نجده عند بني عذرة وبني عامر، ومن هؤلاء الشعراء: جميل بن معمر، وقيس بن ذريح، وعروة بن حزام، قيس بن الملوح.

-العراق:

ازدهر الشعر السياسيَ في العراق أيّما ازدهار، فقد كانت أرض العراق موطنًا للأحزاب السياسيّة المعارضة، واستمرت هذه المعارضات إلى أن وُلّي عليها زياد بن أبيه ثم الحجاج الثقفي، إذ قمعا المعارضين فيها، ووطّدا الحكم، واشتهر شعراء الكوفة في الميل إلى اللهو والخمر مثل الأقيشر الأسدي، أمّا البصرة فتنوعت فيها مذاهب الشعراء، فكان منهم من استأثر بشعر الفخر في عصر بني أمية والعصبية لقبيلته وهجاء من عاداها من القبائل، ومن ذاك شعر النقائض بين جرير والفرزدق، وكان فيها من شعراء الخوارج كثر منهم: عمران بن حطان، ومنهم من ذهب مذهب اللهو والخمرة مثل حارثة بن بدر الغداني.

-الشام:

فيها دمشق حاضرة دولة بني أمية، وكانت الأرض التي يطمح إليها الشعراء والأدباء لنيل الأعطيات والمكافآت، كجرير والفرزدق والأخطل، ونصيب بن الأحوص، وابن ميادة وغيرهم، وكان الأخطل هو شاعر بني أمية، وخلفه عدي بن الرقاع.

-عودة النزاع القبلي:

العصبية هي نزاع دار بين عرب الشمال وهم "القيسية" وعرب الجنوب وهم "اليمنية"، وقد أثار الخلفاء والولاة هذه الفتنة، فقد كان الخلفاء الأمويون يفضلون اليمنية مرة والقيسية أخرى ومنهم معاوية بن أبي سفيان، إذ قدّم القبائل اليمنية بالشام، وأجزل لهم العطاء حتى تحركت القبائل القيسيّة، ففرض لهم العطاء أيضًا حتى قدمهم على اليمنية، كانت هذه العصبية من عوامل سقوطها، وقد اشتدت في عهد سليمان بن عبد الملك، بعد أن عزل حلفاء الحجاج وموسى بن نصير وطارق بن زياد على مآثرهم، فقد كان يميل سليمان إلى اليمنية، وأساء إلى القيسية وولاتهم.

-الموالي والثقافة الأجنبية:

إنّ الشعر لم يكن مقتصرًا على العرب؛ لأنه قد دخل في الإسلام وفي خدمة السلطان من غير العرب الكثير إثر فتح البلدان خارج الجزيرة العربية ونشر الإسلام فيها، فعاش أبناء غير العرب مع العرب، وتعلّموا لغتهم فقد كانت لغة القرآن ولغة الدولة، وكان هناك الكثير من شعراء الموالي، وتأثرت العربية بكثير من اللغات مثل التأثر الذي ظهر في اللغة الفارسية "أكثر اللغات تأثرًا وتأثيرًا" في كثير من المجالات والأدوات والأطعمة والأشربة، وقد انتقلت بعض هذه الألفاظ إلى شعراء عرب كبار مثل الفرزدق وجرير.

-المجالس الأدبية:

اتسعت المجالس الأدبيّة في عهد بني أمية، وضمت الخلفاء والولاة، فقد كان من خلفاء بني أميّة من يروي الشعر وينقده، وكان الشعراء يحضرون المجالس مادحين الخليفة أو الأمير متأملين

بالأعطيات، وقد كان الخليفة في بعض الأحيان ينقض الشعر فيستحسنه أو يذمه.

-تشعُّب النقد وتعدّد نواحيه:

كان لكل مدينة أسلوبها النقدي الذي اشتهرت واختصت به، رسم النقد لبعض أغراض الشعر طريقه، وألمّ بجوانب مهمّة من أدبها، فالنقاد الحجازيون مثلًا وضعوا للغزل رسومًا، واتسع نطاق النقد في هذه الفترة، حتى كثر الخائضون في النقد، وشمل الشعراء والأدباء والعامة والملوك والرجال والنساء، من هذا ما حدث مع الأخطل عند مدحه للخليفة عبد الملك بن مروان في قصيدته "خفَّ القطين"، فقد أعجب بها عبد الملك وأجزل لها العطاء والثناء وأطلق عليه شاعر بني أمية.

-الأسواق:

للعرب في قديم عصورهم أسواق يجتمعون فيها للبيع والشراء وأشهرها سوق عكاظ، إلا أن وظيفة هذه الأسواق لم تقتصر على البيع والشراء وحسب، بل كانت أيضًا ملتقى للشعراء والخطباء، يقرضون الشعر، ويلقون الخطب، وقد أنشئت الكثير من الأسواق في العراق وغيرها في عهد بني أمية، شبيهة بالأسواق التي كانت موجودة في الجاهلية، ومنها سوق المربد في البصرة، إذ أخذ الشعراء يتوافدون إلى الأسواق الأدبية للمفاخرة وللمهاجاة، وأخذ الناس يتقادمون إلى الأسواق للاستماع إلى فحول الشعراء وإلى ما يحدث بين جرير والفرزدق خاصة.

الفصل الثاني
الشعر في العصر الأموي

اتجاهات الشعر في العصر الأموي:

نشط الشعر في عهد بني أمية على مختلف الاتجاهات السياسيّة والحربيّة والعقديّة؛ فقد كثرت الأحزاب في هذا العهد منها الموالية، وكثير منها معارضة كالشيعة، وحزب الزبيرية وهم كالآتي:

بنو أمية:

فقد نجحوا بتأسيس دولتهم والقضاء على معارضيهم، وكان شعراؤهم كثر، والأشعار التي قيلت في مدحهم والثناء عليهم من عيون الشعر العربي.

الشيعة:

وهم الذين يرون أن تنحصر الخلافة في أبناء علي –رضي الله عنه– وحدهم وكانت العراق هي مركز تواجدهم وموطن قوتهم، وهم فرق منهم الزيدية والكيسانية والاثناعشرية وغيرهم، ومن شعرائهم: كثير عزة، الكميت الأسدي صاحب الهاشمية المشهورة.

الخوارج:

وهم الذين خرجوا على الإمام علي لأنه قبل مبدأ التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، وهم الذي قتلوا علياً– رضي الله عنه– على يد عبد الرحمن بن ملجم، وهم أيضًا فرق منهم الأزارقة والصفريّة

والإباضيّة، ومن أشهر شعرائهم: قطريّ بن الفجاءة، عمران بن حطّان، والطرماح بن حكيم.

أغراض الشعر الأموي:

تنوعت أغراض الشعر في العصر الأمويّ وتعددت، ونشأت هذه الأغراض تبعًا لعوامل ومؤثرات، ألهمت الشعراء وأثارت قريحتهم، كان منها ما أُلّف في العصر الجاهليَ وعصر صدر الإسلام، ومنها ما استجد في هذا العصر، ومن هذه الأغراض:

المديح:

هو ذكر أوصاف الممدوح الخلقية والخلقية بالإضافة إلى تصوير فضائله وذكر مناقبه وتقواه وعدالته، وقد شاع هذا الغرض بين الخلفاء والأمراء والولاة، فأخذ الشاعر يتحدث عن عدالة الخليفة وكرمه وجوده على الناس، ووصف بعض الخلفاء أيضًا بالتقى والورع والزهد بمتاع الدنيا كعمر بن عبد العزيز، ولم يختص الخلفاء وحدهم بالمديح بل كان أيضًا للولاة وأمراء الجيوش وقادته نصيب من المديح.

الهجاء:

وهو ذكر الصفات الذميمة في المهجوّ، وقد وظف هذا الهجاء في أغراض السياسة، فكان يقال لبيان ضلال الفئة المعارضة وثبوت ضلالها وانحرافها عن الدين، ومن أسباب الهجاء أيضًا ما قيل بدافع العصبية القبليّة: "ولم يكد ينجُ منه خليفة ولا والٍ ولا شريف بل حتى القراء، كان يتعرض لهم الشعراء.

الغزل صريحه وعذريه:

أما صريحه: وسمّي بهذا؛ لأنَّ الشاعر يصف مغامراته مع فتيات نبيلات لا يتعدى لقاؤه بهن المتعة بالحديث، وقد نشأ هذا الغزل في حاضرتي الحجاز مكة والمدينة، وأشهر شعراء هذا العزل هو الشاعر عمر بن أبي ربيعة.

و**أما عذريَّه:** فهو الذي ينسب إلى قبيلة عذرة، وشاع في بوادي نجد والحجاز، ويعود السبب في نشوء هذا الغزل هو ما أدخله الإسلام في نفوس أهل البادية، فزكاها وأبعدها عمّا يلوثها من الآثام والمعاصي، وارتباطه بالعفة كان السبب في شيوعه ورواجه.

الرثاء:

هو غرض من الأغراض التقليدية، يذكر فيها الشاعر صفات المرثي ومحاسنه وأخلاقه ومآثره التي بقيت وإن مات هو، ويظهر فيه مقدار التفجع والحب الذي يكنه له، وفي العصر الأموي كثرت الحروب وكثر من يقتلون على إثرها، ورثى شعراء كل فرقة أمواتهم رثاء صادقًا مليئًا بالعاطفة، وقد كانت هذه المراثي تتسم بالتأثر بالروح الدينية وذكر ما ينتظرهم من نعيم مقيم في دار الخلد، والتسليم لقضاء الله وقدره.

الزهد:

كان عصر بني أمية عصر فتوحات وغنائم، وأصبحت العرب تملك القرى والضياع وشيدوا القصور والبيوت، شاع الترف ومال الناس إلى اللهو والمجون، إلا أنَّ هذا لم يكن شأن الناس جميعًا، ففيهم القرَّاء الأتقياء الأنقياء، مَن رغبوا عن الدنيا وزهدوا في متاعها واتجهوا إلى التنسك والعبادة، وكان أثر الإسلام في شعرهم واضحًا.

الحنين إلى الوطن:

دار هذا الشعر حول الحروب والفتوحات، ووصف ما شاهده العرب أثناء هذه الرحلات، وهناك في تلك البلاد البعيدة حنَّ الشعراء لأوطانهم واشتاقت نفوسهم لأهليهم وأحبابهم، وكان هذا الحنين يزيد ويتضاعف إذا أحسّ الشاعر باقتراب الموت أو إذا مرض مرضًا شديدًا، أو أنه قد تذكر طيف محبوبته والمواطن التي تلاقى فيها وإياها، وقد باعدت الأيام بينهما مسافات طويلة.

الوصف:

اتخذَّ الشعراء الأمويون من وصف الطبيعة الجديدة والعمارة الجميلة وسيلة للتعبير عمّا يخالج أنفسهم من المشاعر والأحاسيس، وهو شعر جديد في هذا العصر لم يكن من قبل في العصر الجاهليّ، ووصف جرير في بعض مدائحه نهيرات شقها هشام بن عبد الملك في نهر الفرات، وما نبت على ضفافها من ورود وشجيرات، تدل على رقة هذا الفن وقتذاك.

خصائص الشعر الأموي:

تقسم خصائص الشعر الحديث إلى خصائص من حيث الموضوعات، ومن حيث المضمون إلى ما يأتي:

النظم وفق الموضوعات القديمة:

وكانت امتدادًا للعصر الجاهلي ولم يحدثوا فيها جديدًا، إذ كانت الأشعار وفق هذه الموضوعات تستخدم الطريقة التقليدية، وهي المدح والرثاء والفخر والوصف.

بروز أغراض جديدة:

ظهرت على أثر تبدّل الظروف والبيئات واختلاط العرب بغيرهم، ودخول الناس في الإيلام من غير العرب، وهنا يتجلى الفرق في الموضوعات بين العصر الجاهلي والعصر الأموي وهي: الحنين إلى الأوطان، وصف الطبيعة، الخمريات.

المحافظة على سلامة اللغة العربية:

ظلَّ الشعر الأمويّ محافظًا على اللغة العربيّة وسلامتها، وغلبت على هذا الشعر البداوة والتقعر اللغويّ، وهذا اللون من الشعر حظي على استحسان البعض وذم الآخر، ومِن أشهر مَن نظم على هذا النحو الفرزدق.

الصور والأخيلة:

كانت صورهم وأخيلتهم قريبة إلى الشعر الجاهليّ، واعتمدوا في التصوير والتشبيه على الاستعارة والكناية، وقد تأثروا بالقرآن الكريم والحديث الشريف في صورهم، وكان أبرز ذلك عند شعراء الخوارج.

أسباب ازدهار الشعر في العصر الأموي:

قد أدت عدة عوامل إلى ازدهار الشعر في العصر الأموي وتنوع أغراضه وطرق عرضه، منها:

تنوع البيئات:

إذ إنّ تعدد بيئات الشعر في العصر الأموي كان له أكبر الأثر في ازدهار الشعر وتزايد حركته ونشاطه، وكان له أثر في ظهور أغراض شعرية جديدة أغنت الشعر الأموي.

عودة العصبيّة القبليّة:

وتفاخر كل قوم من العرب بمآثرهم ومناقبهم، والمنافسة في ذم القبيلة الأخرى وهجائها، وعن هذه العصبية ظهر لنا شعر النقائض.

تمازج الثقافات:

أي ما أحدثه اتساع أرض الدولة الأموي على أثر الفتوحات الإسلامية من دخول أعداد كبيرة من غير المسلمين إلى الإسلام، وتعرف المسلمين على ثقافات الشعوب الأخرى كالفارسية والهندية واليونانية.

المجالس الأدبيّة:

وما شهدته من مبارايات شعرية في المديح والفخر والرثاء، وقد تهافت الشعراء عليها ابتغاء الحصول على الجوائز والأعطيات من الخليفة أو الأمير الذي كان حاضرًا على رأس هذه المجالس، وقد برز في هذه المجالس النقد الأدبي للأشعار التي تقال فيه.

الاهتمام برواية الشعر ونقده:

فما حفظ على لسان الناس من أشعار العرب في المفاخرة والمهاجاة وغيرها كثير، ما دفع الشعراء في هذا العصر إلى أن يحاولوا أن ينظموا على طريقتها ويعارضونها، وكان عدد من الشعراء يتصدى لنقدها أيضًا وفق معايير وأسس معيّنة.

****

أولا: جرير:

جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي (٣٣ هـ – ١١٠ هـ/ ٦٥٣ – ٧٢٨ م) شاعرُ من بني كليب بن يربوع من قبيلة بني تميم وهي قبيلة في نجد، ولد في بادية نجد، ومن أشهر شعراء العرب في فن الهجاء، وكان بارعًا في المدح أيضًا، وكان جرير أشعر أهل عصره، ولد ومات في نجد، وعاش عمره كله يناضل شعراء زمانه، ويساجلهم فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، كان عفيفا، وهو من أغزل الناس شعرا، بدأ حياته الشعرية بنقائض ضد شعراء محليين، ثم تحول إلى الفرزدق –ولج الهجاء بينهما نحوا من أربعين سنة– وإن شمل بهجائه أغلب شعراء زمانه، ومدح بني أمية ولازم الحجاج زهاء العشرين سنة، وقد وصلت أخباره وأشعاره الآفاق وهو لا يزال حيا، واشتغلت مصنفات النقد والأدب به، اقترن ذكره بالفرزدق والأخطل.

نشأته:

كان له نسب كريم، مع أن والده كان على قدر كبير من الفقر، ولكن جده حذيفة بن بدر الملقب بالخطفي كان يملك قطيعا كبيرا من الإبل والغنم، وكان ينظم الشعر وكذلك كانت أمه، وعندما ولد جرير وضعته أمه لسبعة أشهر من حملها، ورأت رؤيا مفزغة فذهبت إلى العراف حتى يفسر الرؤيا، فأخبرها أنها ستَلِد عضلة من العضل، وقد نشأ جرير في بادية نجد وعاش فيها، وتعلم الشعر مبكرًا على لسان جده حذيفة بن بدر، وقد نشأ في العصر الأموي الذي تعددت فيه الأحزاب، فكان لكل حزب شعراؤه الذين يتحدثون باسمه ويذودون عنه، وكان على جرير أن يذود عن شرف وكرامة قبيلته، فاضطر أن يفني عمره في

مصارعة الشعراء وهجائهم حتى قيل أنه هجا وهزم ثمانين شاعرًا في عصره، ولم يثبت منهم إلا الأخطل والفرزدق.

شعره:

شاع أن جريرا من الذين "هجوا فوضعوا من قدر من هجوا" شأن زهير وطرفة والأعشى والنابغة؛ لذلك لم يرفع بنو نمير رأسا بعد بيت جرير إلّا نكس بهذا البيت، وصنعت الأخبار في ما يجد خصمه من العناء والموت أحيانا لنجاعة شعره وعميق أثره في الناس، وجرت أشعاره مجرى الأحاجي، وتمثلوا بها في تصاريف حياتهم ووضعت فيها الأصوات ونسبت إلى آراء في المغنين، وجعل رواية لأخبارهم، ومورثهم الشعر، واتصل بهم وسافر إليهم لينصت إلى ما وضعوا في أشعاره من أصوات، ولذلك سارت أشعاره في كتب الأخبار والتاريخ، وجرت فيها مصادر معرفة وأقيسة في الإفتاء، وعل سبيل المثال: أمر الحجاج بن يوسف (ت٩٥هـ) بأن تضرب عنق سعيد بن جبير، وقد نكث ببيعتين لأمير المؤمنين، وجعل مرجعه في هذا الأمر قول جرير:

يا ربّ ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج

وأعرض الخليفة المنصور (ت١٥٨هـ) عن الزواج بأخت هشام بن عمرو التغلبي، لبيت قاله جرير في بني تغلب:

لا تطلبنّ خوّولة في تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا

قال: «فأخاف أن تلد لي ولدا فيعبر بهذا البيت»، وقد شاعت الأخبار في شعر جرير وسيرته في الناس، وشاعت الأخبار التي تنزل جرير منزلة الناقد في تقدير مراتب الشعراء والحكم بينهم، وشبهت منزلته من شعراء الإسلام بمنزلة الأعشى من شعراء الجاهلية، فهو أستاذهم لذلك

أقر الراعي النميري (خصم جرير) بأن: «الإنس والجن لو اجتمعت ما أغنوا فيه شيئا»، ولذلك أيضا قال أبو مهدي الباهلي، وهو من علماء العرب: «لا يزال الشعراء موقوفين يوم القيامة حتى يجيء جرير فيحكم بينهم»، ومن شعره يرثي زوجته، وهي من أعظم المراثي العربية:

لولا الحياء لهاجني استعبارُ ولزرت قبركِ والحبيبُ يزارُ
ولقد نظرتُ وما تمتعُ نظرةٌ في اللحدِ حيث تمكنُ المحفارُ
فجزاكِ ربكِ في عشيركِ نظرةٌ وسقي صداك مجلجل مدرارُ
ولَّهتِ قلبي إذ علتني كبرةٌ وذوو التمائم من بنيك صغارُ

ففي هذه الأبيات يظهر حزنه، حين يرثي الشاعر زوجته المتوفاة، ويقع في أبياته بين صراع تفرضه عليه العادات والتقاليد، وبين آلامه وأحزانه ومحبته لزوجته، والأبيات تصور فقده زوجته، أم أولاده، وقد أصبح متقدما في السن، فقد كبر وكاد أن يتحطم، فهو بعد وفاة زوجته أصبح مسؤولاً عن تربية أطفاله الصغار ورعايتهم، ثم ينتهي إلى التسليم بأمر الله ثم يدعو لها أن ترعاها الملائكة، لأنها كانت زوجة وفية صالحة.

تفوق جرير:

قال أعرابي في مجلس الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان عنده جرير: «بيوت الشعر أربع (مدح وفخر وغزل وهجاء) وفي كلها غلب جرير»، ففي الفخر قال:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وفي المدح قال:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقوله في الغزل:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وفي الهجاء قوله:

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

جرير والراعي النميري:

تبادل جرير والفرزدق الهجاء لأكثر من أربعين سنة، وكان كثير من الشعراء ينزلق في هذه المناظرة مؤيدا شاعرا على الآخر، وهذا ما حدث للراعي النميري، حيث انحاز إلى الفرزدق على حساب جرير حيث قال:

يا صاحبي دنا الرواح فسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

فلم يمهله جرير كثيرا، بل أعد له في اليوم التالي قصيدة تتكون من ٩٧ بيتا من الشعر، فأتى سوق المربد بعد أن احتل الناس مراكزهم، وأسرج ناقته عند مجلس الفرزدق والراعي النميري وألقى قصيدته، ويطلق عليها الدامغة، وهذه بعض أبياتها:

أعد الله للشعراء منـــــــي صواعق يخضعون لها الرقابا

فلا صلى الإله على نمير ولا سقيت قبورهم السحـــــــــابا

ولو وزنت حلوم بني نمير على الميزان ما بلغت ذبـــابا

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعب بلغت ولا كـــــلابا

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضـــابا

وقد اتفق علماء الأدب وأئمة نقد الشعر على أنه لم يوجد في الشعراء الذين نشأوا في ملك الإسلام أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل، وإنما اختلفوا في أيهم أشعر، ولكل هوى وميل في تقديمه صاحبه؛ فمن كان هواه في رقة النسيب، وجودة الغزل والتشبيب، وجمال اللفظ ولين

الأسلوب، والتصرف في أغراض شتى فضّل جريرا، ومن مال إلى إجادة الفخر، وفخامة اللفظ، ودقة المسلك وصلابة الشعر، وقوّة أسره فضّل الفرزدق، ومن نظر بُعد بلاغة اللفظ، وحُسن الصوغ إلى إجادة المدح والإمعان في الهجاء، واستهواه وصف الخمر واجتماع الندمان عليها، حكم للأخطل، وإن لجرير في كل باب من الشعر أبياتا سائرة، هي الغاية التي يضرب بها المثل، ومن ذلك قوله في الفخر:

إذا غَضِبَتْ عليكَ بنو تميم حَسِبْت الناس كلَّهُم غِضابا

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

إنـا لنرجو إذا مـا الغيث أخلفنـا من الخليفـة مـا نرجو من المطر

ومن قوله في التهكم:

زعـم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشـر بطـول سلامة يـا مربع

وقوله في مدح عبد الملك بن مروان:

ألَسْتُم خَيْر مَنْ ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راحٍ

وقوله في صدق النفس:

إني لأرجو منك خيرا عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل

وتلحظ روعة هذه الأبيات، وجمالها، حتى صارت علامة على تفوق جرير الخطفي في الشعر، كما صارت أمثله يُستشهد بها في مواقف الحياة المختلفة.

المديح عند جرير:

لقد أكثرَ جريرُ من المديح، وخصوصا لبني أمية، وكان مديحَهُ لهم يشيد بمجدهم التليدِ ويروي مآثرَهم ومكارمَهم، وإذا مدح الحجاج أو الأمويين بالغ في وصفهم بصفات الشرف وعلو المنزلة والسطوة وقوة

البطش، ويلح إلحاحا شديداً في وصفهم بالجود والسخاء ليهز أريحيتهم، وقد يسرف في الاستجداء وما يعانيه من الفاقة، كما تكثر في أماديحه لهم الألفاظ الإسلامية والاقتباسات القرآنية، وقد عاصر الشاعر "عبيد الراعي" الشاعرين جريرًا والفرزدق، فقيل إن الراعي الشاعر كان يسأل عن هذين الشاعرين فيقول: «الفرزدق أكبر منهما وأشعرهما»، فمرة في الطريق رآه الشاعر جرير وطلب منه أن لا يدخل بينه وبين الفرزدق فوعده بذلك، لكن الراعي هذا لم يلبث أن عاد إلى تفضيل الفرزدق على جرير، فحدث أن رآه ثانية، فعاتبه فأخذ يعتذر إليه، وبينما هما على هذا الحال، إذ أقبل ابن الراعي وأبى أن يسمع اعتذار أبيه لجرير، حيث شتم ابن الراعي الشاعر جريرًا وأساء إليه.

كما أن الهجاء عند جرير شديد الصلة بالفخر، فهو إذا هجا افتخر، وجعل من الفخر وسيلة لإذلال خصمه، أما موضوع فخره فنفسه وشاعريته، ثم قومه وإسلامه، فإذا هجا الفرزدق اصطدم بأصل الفرزدق الذي هو أصله، فكلاهما من"تميم"، وإذا هجا الأخطل فخر بإسلامه ومضريته، وفي مضر النبوة والخلافة:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والنبوة فينا

غزل جرير:

لم يكن غزل جرير فنا مستقلا في شعره، فقد مزج فيه أسلوب الغزل الجاهلي بأسلوب الغزل العذري. فهو يصف المرأة ويتغزل بها، ثم يتنقل من ذلك إلي التعبير عن دواخل نفسه، فيصور لنا لوعته وألمه وحرمانه، كما يحاول رصد لجات نفسه فيقول:

إن العيون التي في طرفها حـــور قتلننا ثم لـــم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتي لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

أسلوب جرير:

يتميز أسلوبه بسهولة الألفاظ وهي ظاهرة في جميع شعره، وبها يختلف عن منافسيه الفرزدق والأخطل اللذين كانت ألفاظهما أميل إلى الغرابة والتوعر والخشونة، وقد أوتي جرير موهبة شعرية ثربة، وحسا موسيقيا، ظهر أثرهما في هذه الموسيقى العذبة التي تشيع في شعره كله، وكان له من طبعه الفياض خير معين للإتيان بالتراكيب السهلة التي لا تعقيد فيها ولا التواء، فكأنك تقرأ نثراً لا شعرا.

إن اعتماد جرير على الطبع وانسياقه مع فطرته الشعرية من الأمور التي أدت أيضا إلى سهولة شعره وسلاسة أسلوبه ورقة ألفاظه، إذ كان لشعره موسيقى تطرب لها النفس، ويهتز لها حس العربي الذي يعجب بجمال الصيغة والشكل، ويؤخذ بأناقة التعبير وحلاوة الجرس أكثر مما يؤخذ بعمق الفكرة والغوص في المعاني، ولهذا أبدع جرير في أبواب الشعر التي تلائمها الرقة والعذوبة، كالنسيب والرثاء.

وكان لحياة جرير البدوية أثرها الكبير في شعره، كما كان لها أثرها في نفسه، فتأثير النشأة البدوية واضح من جزالة ألفاظه ورقتها وسهولتها. إلا أن شعر جرير لم يخلص لأثر البادية وحدها، فقد كان للقرآن الكريم أثره في شعره، إذ لطف فيه من طابع البداوة، وكان له أثره في رقة ألفاظه وسهولة أسلوبه، كما كان له أثر في معانيه وأفكاره، كما أن جرير لا يكثر من الصور البيانية في قصائده، ففي شعره يظهر الأسلوب البدوي، وهو قريب التناول جميل التعبير.

خصائص أشعار جرير:

يتميز شعره بملامح فنية أبرزها أنه في شعره يجول في ساحات واسعة الأرجاء، متعددة الجوانب، فقد طرق أكثر الأغراض الشعرية المعروفة وأجاد فيها، وأعانته على ذلك طبيعته الخاصة المواتية، وكانت معاني الشاعر جرير في شعره فطرية، كما أن الصور والأخيلة جاءت متصلة بالبادية التي ارتبطت بها حياته أشد الارتباط، ولجرير بعد ذلك قدرته على انتقاء اللفظ الجزل، ومتانة النسج، وحلاوة العبارة، والجرس الموسيقي المؤثر، وخاصة في غزله حيث العاطفة الصادقة التي تتألم وتتنفس في تعبير رقيق لين.

****

ثانياً: الفرزدق:

الفرزدق (٣٨ هـ / ٦٤١م – ١١٠ هـ / ٧٣٢م) شاعر عربي من شعراء العصر الأموي من أهل البصرة، واسمه: همام بن غالب بن صعصعة الدارمي التميمي، وكنيته أبو فراس، وسُمي الفرزدق لضخامة وتجهم وجهه، ومعناها: الرغيف، اشتهر بشعر المدح والفخرُ وَشعرُ الهجاء.

النشأة:

ولد الفرزدق عام ٣٨ للهجرة، وقد سمي بالفرزدق لضخامة وتجهم وجهه. ومعنى الفرزدق، هو الرغيف وواحدته فَرَزْدَقَة، والفرزدق يشبه بزهير بن أبي سلمى وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين والفرزدق في الإسلاميين، وهو وأبوه قثراء ومن نبلاء قومه وسادتهم بنو تميم ومن أكثر الشعراء، يقال أنه لم يكن يجلس لوجبة وحده أبدا، وكان يجير من استجار بقبر أبيه، والموؤودات وهن البنات التي كانت تدفن قبل الإسلام في الجاهلية وأدرك الإسلام وكان كريماً جواداً. كان الفرزدق كثير الهجاء، إذ أنَّه اشتهر بالنقائض التي بينه وبين جرير الشاعر حيث تبادل الهجاء هو وجرير طيلة نصف قرن حتى توفي ورثاه جرير، تنقل بين الأمراء والولاة يمدحهم ثم يهجوهم ثم يمدحه.

الفرزدق وجرير:

نظم في معظم فنون الشعر المعروفة في عصره وكان يكثر الفخر يليه في ذلك الهجاء ثم المديح، مدح الخلفاء الأمويين بالشام، ولكنه لم يدم عندهم لمناصرته لآل البيت. كان معاصراً للأخطل ولجرير

الشاعر أيضًا، وكانت بينهما صداقة حميمة، إلا أن النقائض بينهما أوهمت البعض أن بينهم تحاسداً وكرها، وانشعب الناس في أمرهما شعبتين لكل شاعر منهما فريق، لجرير في الفرزدق رثاء جميل.

الفرزدق وآل البيت:

كانت للفرزدق مواقف فيما يخص آل البيت، وكان ينشد بين أيدي الخلفاء قاعدا، جاء في كتاب الموجز في الشعر العربي للشاعر العراقي فالح الحجية الكيلاني أنه لقب بالفرزدق لجهامة ووجوم في وجهه يكاد لا يفارقه مدح قومه وفخر بهم ومدح العلويين ومدح الأمويين كذلك، ويتميز شعره بقوة الأسلوب والجودة الشعرية وقد أدخل في الشعر العربي الكثير من الألفاظ الغريبة وبرع في:(المدح والفخر والهجاء والوصف) يقول أهل اللغة: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث العربية، فقد كان مقدمًا في الشعراء، وصريحا جريئا، يتجلى ذلك عندما يعود له الفضل في أحياء الكثير من الكلمات العربية التي اندثرت.

قدم هشام بن عبد الملك للحج برفقة حاشيته، وقد كان معهم الشاعر العربي الفرزدق وكان البيت الحرام مكتظاً بالحجيج في تلك السنة ولم يُفسح له المجال للطواف فجلب له متكأ ينتظر دوره وعندما قدم الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب انشقت له صفوف الناس حتى أدرك الحجر الأسود، فثارت حفيظة هشام وأغاظه ما فعلته الحجيج لعلي بن الحسين فسئل هشام بن عبد الملك من هَذا؟ فأجابه الشاعر العربي الفرزدق هذه القصيدة وهي من أروع ما قاله ومطلعها:

هَذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأتَهُ وَالبَيْتُ يعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

الفخر:

كان الفرزدق معروفا بفخره وتأتي الكلمات أكثر سلاسة في شعره عندما يفتخر بنسبه، ويفاخر بنسبه معاصريه من الشعراء، ومن أشهر قصائده في هذا السياق عندما يخاطبُ الشاعرَ جرير:

إنَّ الَّذي سَمَكَ السَماءَ بَنـــى لَنا	بَيتًا دَعائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطـــــــوَلُ
بَيتاً بَناهُ لَنا المَليكُ وَمـــــا بَنى	حَكَـــــــمُ السَماءُ فَإِنَّهُ لا يُنقَلُ
بَيتاً زُرارَةُ مُحتَبٍ بِفِنـــــــــائِهِ	وَمُجاشِعٌ وَأَبو الفــوارِسِ نَهشَلُ
لا يَحتَبي بِفِناءِ بَيتِكَ مِثلُـــــــهُم	أَبَداً إِذا عُدَّ الفَـــــعالُ الأَفضَلُ
ضَرَبَت عَلَيكَ العَنكَبوتَ بِنَسجِـــها	وَقَضى عَلَيكَ بِهِ الكِــتابُ المُنزَلُ
أَينَ الَّذينَ بِهِم تُسامي دارِمـــــا	أَم مَن إِلى سَلَفي طُهَيَّةَ تَجـــعَلُ
يَمشونَ في حَلَقِ الحَديدِ كَما مَشَت	جُربُ الجِمالِ بِها الكُحَيلُ المُشعَلُ
حُلَلُ المُلوكِ لِباسُنا فـــــي أَهلِنا	وَالسابِغاتِ إِلـــى الوَغى نَتَسَربَلُ
أَحـــــــلامُنا تَزِنُ الجِبالَ رَزانَةً	وَتَخالُنا جِنّاً إِذا مـــــــا نَجهَلُ
يا ابن المَراغةِ أين خالُكَ ؟ إنّنـــي	خالـــي حُبَيشٌ ذو الفِعالِ الأَفضَلُ
خالي الذي غَصَبَ المُلوك نُفوسَهُم	وإليه كـــــان حِباءُ جَفنة يُنقَلُ

****

ثالثاً: الأخطل التغلبي

ويكنى أبو مالك ولد عام ١٩ هـ، الموافق عام ٦٤٠م، وهو شاعر عربي وينتمي إلى قبيلة تغلب العربية، وكان مسيحيا، وقد مدح خلفاء بني أمية بدمشق في الشام، وأكثر في مدحهم، وهو شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع، وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير والفرزدق والأخطل.

نشأته:

نشأ في دمشق، واتصل بالأمويين فكان شاعرهم، وتهاجى مع جرير والفرزدق، فتناقل الرواة شعره، وكان معجبا بأدبه، تياها، كثير العناية بشعره، وكانت إقامته حينا في دمشق وحينا في الجزيرة الفراتية، وقد نظم الشعر صغيرا، ورشحّه كعب بن جعيل شاعر تغلب ليهجو الأنصار، فهجاهم وتعززت صلته ببني أمية بعد ذلك، فقرّبه يزيد، وجعله عبد الملك بن مروان شاعر البلاط الرسمي، يدافع عن دولة بني أمية، ويهاجم خصومها، وأقحم نفسه في المهاجاة بين الشعر وجرير والفرزدق حين فضّل الفرزدق على جرير، وامتدّ الهجاء بينه وبين جرير طوال حياته وقد جمع أبو تمام نقائض جرير والأخطل.

وقد برع الأخطل الشاعر في المدح والهجاء ووصف الخمرة، ويتهمه النقاد بالإغارة على معاني من سبقه من الشعراء، والخشونة والالتواء في الشعر والتكلّف أحيانا، وهو في نظرهم شاعر غير مطبوع بخلاف جرير، ولكنه واسع الثقافة اللغوية، تمثّل التراث الأدبي وأحسن استغلاله.

****

رابعاً: عمر بن أبي ربيعة

(ولد ٦٤٤م / ٢٣ هـ – توفي ٧١١م / ٩٣ هـ) شاعر مخزومي قرشي، شاعر مشهور لم يكن في قريش أشعر منه وهو كثير الغزل والنوادر ، ولُقِب بالعاشق. يكنى أبا الخطَّاب، وأبا حفص، وأبا بشر، ولقب بالمُغيريّ نسبة إلى جَدّه. أحد شعراء الدولة الأموية ويعد من زعماء فن التغزل في زمانه. وهو من طبقة جرير، والفرزدق والأخطل.

سيرته:

كان الشاعر وسيما، بهيَّ الطَّلْعة، نشأ في أحضان أمه يساعدها على إدارة أملاك أبيه الواسعة، وعاش في شبابه تحت رعاية أُمّه، فأتيح له الاختلاط بالنساء والجواري من دون تحرج، تزوج كَلْثَم بنت سعد المخزومية، فأنجبت له ولدين وماتت عنده، فتزوج زينب بنت موسى الجُمَحيّة، فأنجبت له بِشْراً. كان واحداً من الشعراء المجددين الذين أعطوا القصيدة الغزلية ميزات فنية عدة كالقصّ والحوار، وترقيق الأوزان الصالحة للغناء.

نسبه ونشأته:

نسبه الكامل هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ويلتقي في نسبه مع الرسول محمد –صلى الله عليه وسلم– في جده السادس مرة بن كعب، ويلتقي مع الصحابي خالد بن الوليد في جده المغيرة بن عبد الله.

وقد ولد في الليلة التي توفي بها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ، فسمي باسمه وقال الناس بعد ذلك زهق الحق وظهر الباطل لشعر ابن أبي ربيعة المتحرر وتقى ابن الخطاب. شب الفتى عمر على دلال

وترف، فانطلق مع الحياة التي تنفتح رحبة أمام أمثاله ممن رزقوا الشباب والثروة والفراغ. لهى مع اللاهين وعرفته مجالس الطرب والغناء فارسا مجليا ينشد الحسن في وجوه الملاح في مكة، ويطلبه في المدينة والطائف وغيرهما.

وفاته

يقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها، وإذا صح ذلك يكون قد توفي حوالي سنة ٩٣ هـ، وقد تضاربت الروايات في سبب موت عمر، فقيل إنه غزا في البحر، فأحرقت سفينته ومات، وقيل: توفي وفاة طبيعية وكان قد ترك الشعر في مشيبه.

مسيرته الشعرية:

يروى أنه كان يستغل موسم الحج؛ ليتحرش بالنساء الجميلات، إذ يعتمر ويلبس الحلل والوشي ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج، ويلقى الحاجّات من الشام والمدينة والعراق فيتعرف إليهن، ويرافقهن، ويتشبب بهن ويروي طرفا من مواقفه معهن، وشاقته هذه المجالس والمعارض فتمنى لو أن الحج كان مستمرا طوال أيام السنة:

ليت ذا الدهر كان حتما علينا كل يومين حجة واعتمارا

ومما يروى أن سليمان بن عبد الملك سأله: «ما يمنعك من مدحنا؟»، فأجابه: «أنا لا أمدح إلا النساء»، وقد وصف في شعره النساء وطرافتهن في الكلام وحركاتهن وبرع في استعمال الأسلوب القصصي والحوار وتتميز قصائده بالعذوبة والطابع الموسيقي وقد تغنى كبار الموسيقيين في ذلك العصر بقصائد هذا الشاعر، وجعل من الغزل

فناً مستقلاً، وكان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ويقربه، وقد كتب عمر ديوانا كله في غرض مدح النساء، باستثناء أبيات قليلة في الفخر، وكان على جانب من الإعجاب بنفسه، وفي العديد من قصائده يصور نفسه معشوقا لا عاشقا والنساء يتهافتن عليه ويتنافسن في طلبه بل إنه يتحدث عن «شهرته» لدى نساء المدينة، وكيف يعرفنه من أول نظرة، ويمتاز شعره بقدرته على وصف المرأة وعواطفها ونفسيتها وهواجسها وانفعالاتها وميلها إلى الحب والغرام، وكل ما يتعلق فيها وبجمالها وحسنها والتعبير الجاذب لها حتى قيل ما من امرأة لاحظت عمر بن أبي ربيعة يتقرب منها ويصف لواعج حبه لها إلا وقعت في شراك حبه، ثم عندما تقدم به السن، أقلع عن اللهو والمجون وذكر النساء إلى أن توفي عام ٩٣ هـ.

لَيتَ هِنداً أَنجَزَتنا مـــــا تَعِد	وَشَفَت أَنفُسَنا مِمّـــــا تَجِد
زَعَموها سَأَلَت جـــــاراتِها	وَتَعَرَّت ذاتَ يَـــــومٍ تَبتَرِد
فَتَضاحَكنَ وَقَد قُلنَ لَهـــــا	حَسَنٌ في كُلِّ عَينٍ مَـــن تَوَد
حَسَدٌ حُمِّلنَهُ مِن أَجلـــــــِها	وَقَديماً كانَ في الناسِ الحَسَد
غادَةٌ تَفتَرُّ عَن أَشنَبِـــــــها	حينَ تَجلوهُ أَقـــــاحٍ أَو بَرَد
وَلَها عَينانِ في طَرفَيهِمـــــــا	حَوَرٌ مِنها وَفـــي الجيدِ غَيَد
سُخنَةُ المَشتى لِحـــافٌ لِلفَتى	تَحتَ لَيلٍ حينَ يَغشاهُ الصَرَد
وَلَقَد أَذكُرُ إِذ قُلتَ لَـــــــها	وَدُموعي فَوقَ خَـــدّي تَطَّرِد
قُلتُ مَن أَنتِ فَقالَت أَنا مـــــَن	شَفَّهُ الوَجدُ وَأَبلاهُ الكَمـــــَد
نَحنُ أَهلُ الخَيفِ مِن أَهلِ مِنىً	مـــــــا لِمَقتولٍ قَتَلناهُ قَوَد
كُلَّما قُلتُ مَتـــــــى ميعادُنا	ضَحِكَت هِندٌ وَقالَت بَعدَ غَد

خامساً: قيس بن الملوح

شاعر غزل عربي، لُقب بمجنون ليلى، وهو من أهل نجد، وقد عاش في فترة خلافة مروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان في القرن الأول من الهجرة في بادية العرب، ولم يكن مجنونًا، وإنما لقب بذلك لهيامه في حب ليلى العامرية، التي نشأ معها وعشقها، فرفض أهلها أن يزوجوها به، فهام على وجهه ينشد الأشعار، ويأنس بالوحوش ويتغنى بحبه العذري، فيرى حينا في الشام، وحينا في نجد وحينا في الحجاز، وهو أحد القيسين، الشاعرين المتيمين، والآخر هو: قيس بن ذريح "مجنون لبنى"، توفي سنة ٦٨ هـ، وقد وجد ملقى بين أحجار وهو ميت، فحُمل إلى أهله، وقد أجمعت التراجم والسير، على أن قيس بن الملوح هو في الحقيقة ابن عم ليلى، وقد تربيا معا في الصغر، وكانا يرعيان مواشي أهلهما ورفيقا لعب في أيام الصبا، كما يظهر في شعره حين قال:

تعلّقت ليلى وهي ذات تمائم ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر، ولم تكبر البهم

ومما يذكر أن قيسًا: "أحب ليلى بنت سعد العامري، ابنة عمه، حيث نشأ معها وتربيا وكبرا سويًا، حيث كانا يرعيان مواشي والديهما، فأحب أحدهما الآخر فكانا بحق رفيقين في الطفولة والصبا فعشقها وهام بها،

وكما هي العادة في البادية، عندما كبرت ليلى حجبت عنه، وهكذا نجد قيس وقد اشتد به الوجد يتذكر أيام الصبا البريئة، ويتمنى لها أن تعود كما كانت لينعم بالحياة جوارها، وهكذا هام قيس على وجهه ينشد الأشعار المؤثرة التي خلدتها ذاكرة الأدب له في حب ابنة عمه، ويتغزل بها في أشعاره، ثم تقدم قيس لعمه طالبا يد ليلى بعد أن جمع لها مهرًا كبيرًا، وبذل لها خمسين ناقة حمراء، فرفض أهلها أن يزوجوها إليه، حيث كانت العادة عند العرب تأبى تزويج من ذاع صيتهم بالحب وقد تشبب بها (أي تغزل بها في شعره)"، لأن العرب قديمًا كانت ترى أن تزويج المحب المعلن عن حبه بين الناس عار وفضيحة، وهذه عادة عربية جاهلية ولا تزال هذه العادة موجودة في بعض القرى والبوادي العربية.

وفي نفس الوقت تقدم لليلى خاطب آخر من ثقيف يدعى: ورد بن محمد، وبذل لها عشرًا من الإبل وراعيها، فاغتنم والد ليلى الفرصة وزوجها لهذا الرجل رغمًا عنها، ورحلت ليلى مع زوجها إلى الطائف، بعيدا عن حبيبها ومجنونها قيس، ويقال أنه حين تقدم لها الخطيبان قال أهلها: نحن مخيّروها بينكما، فمن اختارت تزوجته، ثم دخلوا إليها، فقالوا: والله لئن لم تختار وردًا لنمثلنّ بك، فاختارت وردًا وتزوجته رغمًا عنها، فهام قيس على وجهه في البراري والقفار ينشد الشعر والقصيد ويأنس بالوحوش ويتغنّى بحبه العذريّ.

صور من حب قيس وجنونه بليلى:

قيل في قصة حبه: إنه مر يومًا على ناقة له بامرأة من قومه، وعليه حلّتان من حلل الملوك، وعندها نسوة يتحدثن، فأعجبهن، فاستنزلنه للمحادثة، فنزل وعقر لهن ناقته وأقام معهن بياض اليوم، وجاءته ليلى لتمسك معه اللحم، فجعل يجزّ بالمُدية في كفه، وهو شاخص فيها حتى أعرق كفه، فجذبتها من يده ولم يدرِ، ثم قال لها: ألا تأكلين الشواء؟ قالت: نعم، فطرح من اللحم شيئا على الغضى –الجمر– وأقبل يحادثها، فقالت له: انظر إلى اللحم، هل استوى أم لا؟ فمد يده إلى الجمر، وجعل يقلب بها اللحم، فاحترقت، ولم يشعر، فلما علمت ما داخله صرفته عن ذلك، ثم شدت يده بهدب قناعها، وروي أن أباه قد ذهب به إلى الحج لكي يدعو الله أن يشفيه مما ألمّ به من حب ليلي، وقال له: تعلّق بأستار الكعبة وادعُ الله أن يشفيك من حبها، فذهب قيس وتعلق بأستار الكعبة وقال: "اللهم زدني لليلي حبًا وبها كلفًا ولا تنسني ذكرها أبدًا"، وحكي أن قيس قد ذهب إلى ورد زوج ليلى في يوم شاتٍ شديد البرودة، وكان جالسًا مع كبار قومه حيث أوقدوا النار للتدفئة، فأنشده قيس قائلاً:

بربّك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها

وهل رفّت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة في نداها

كأن قرنفلاً، وسحيقَ مِسكٍ وصوب الغانيات شملن فاها

فقال له ورد: أما إذ حلّفتني فنعم، فقبض قيس بكلتا يديه على النار ولم يتركها حتى سقط مغشيًا عليه، وقد كان لقيس تأثيره الكبير فى الأدب العربى، كما كان له تأثير في الأدب الفارسي أيضًا، حيث كانت قصة قيس بن الملوح إحدى القصص الخمسة ل: بنج غنج، أي كتاب: "الكنوز الخمسة"، للشاعر الفارسي نظامي كنجوي، كما أنها أثرت في الأدبين التركي والهندي ومنه إلى الأدب الأردوي، من أبياته في حبيبته ليلى:

أمرُّ على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدارَ وذا الجـدارَ

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديـارَ

ومنه أيضًا:

ألست وعدتني ياقلبُ أنّي اذا ماتُبتُ عن ليلى تتوبُ

فها أنا تائبٌ عن حُبِ ليلى فما لك كلما ذُكرت تذوبُ

ومنه أيضًا:

كلانا مظهر للناس بغضا وكل عند صاحبه مـكين

تحدثنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثم هوى دفين

ومنه قصيدته ذائعة الصيت، نختار منها:

وَأَنتِ الَّتي إِن شِئتِ نَغَّصتِ عيشَتي وَإِن شِئتِ بَعدَ اللَهِ أَنعَمتِ بالِيا

وَإِنّي لَأَستَغشي وَما بِيَ نَعسَةٌ لَعَلَّ خَيالاً مِنكِ يَلقى خَيالِيا

وَإِنّي إِذا صَلَّيتُ وَجَّهتُ نَحوَها بِوَجهي وَإِن كانَ المُصلّى وَرائِيا

وَما بِيَ إِشراكٌ وَلَكِنَّ حُبَّها كَعودِ الشَجى أَعيا الطَبيبَ المُداوِيا

أُحِبُّ مِنَ الأَسماءِ ما وافَقَ اِسمُها وَشابَهَهُ أَو كانَ مِنهُ مُدانِيا

أُصَلّي فَما أَدري إِذا ما ذَكَرتُها اِث نَتَينِ صَلَّيتُ الضُحى أَم ثَمانِيا

دَعَوتُ إِلَهَ الناسِ عِشرينَ حِجَّةً نَهاري وَلَيلي في الأَنيسِ وَخالِيا

إِذا الحُبُّ أَضناني دَعوا لي طَبيبَهُم فَيا عَجَبًا هَذا الطَبيبَ المُداوِيا

وَقالوا بِهِ داءٌ قَدَ اَعيا دَواؤُهُ وَقَد عَلِمَت نَفسي مَكانَ شِفائِيا

وقد توفي قيس بن الملوح سنة ٦٨، وقد وجد ملقى بين أحجار وهو ميت، فحُمل إلى أهله، وروي أن امرأة من قبيلته كانت تحمل له الطعام إلى البادية كل يوم وتتركه، فإذا عادت في اليوم التالي لم تجد الطعام فتعلم أنه ما زال حيًا، وفي أحد الأيام وجدته لم يمس الطعام، فأبلغت أهله بذلك فذهبوا يبحثونَ عنه حتى وجدوه في وادٍ كثير الحصى، وقد توفي.

الفصل الرابع

مدخل إلى الشعر العباسي

العصر العباسي الأول

أولا: الشعر والشعراء

إن الأدب لسان حال العصر وترجمان المحيط، فإذا شئنا أن ندرس درسًا واضحًا أدبَ هذا العصرِ العباسي علينا أن نوطئ له بدرس عن حضارته.

لم يكن شعب هذا العصر عربيًّا قحًّا، ولا فارسيًّا خالصًا، بل مزيج من الشعبين وغيرهما من الشعوب التي كانت تسكن العراق وتعمل في أرضه، وهي مكونة من العقلية العربية والفارسية والسامية القديمة، متأثرة بالديانة المسيحية وثقافة اليونانيين، ولذلك كانت مخالفة كل المخالفة لحياة العرب في عهد بني أمية، فكان الفرق عظيمًا جدًّا بين الحياتين، فلذلك ضعف أثر الحياة البدوية الخالصة في هذا الجيل من أهل العراق، وتأثر جدًّا بالحضارة الفارسية القديمة، فنشأ عن ذلك، وعن ذهاب سلطة العرب؛ تمتُّع أهل هذا الجيل الجديد بكل ما كان لا يتمتع فيه العربي في العهد الماضي، فاستوى فيه الغالب والمغلوب في كل شيء، فتضاءلت سلطة الدين الإسلامي، لحداثة القوم فيه ولتأثير ديانتهم القديمة الموروثة عليهم، وكانت لغتهم أيضًا بين الفصاحة الخالصة والرطانة الأعجمية.

والفرق بين هذا الجيل والجيل الذي تقدمه، أن هذا ظهر فيه ميل شديد للحياة العلمية، فانتشر العلم وتنوع، فمنه ما حدث ومنه ما نما وارتقى، ومنه ما نقل، فمحَّصوه ودرسوه حتى هضموه وطبعوه بطابع عربي خاص، وكان في العصر الأموي علم، ولكنه كان إسلاميًّا محضًا، وهو يسير وساذج، أما في هذا الجيل فكثرت وتشعبت فروعه.

وبعد هذا الجيل عهد الأدب بالبداوة العربية، فقلَّ حظه من السذاجة فتكلف وتعقد، وظهرت آثار التعمل فيه، بعدما كان ساذجًا، وبعد الطبع،

والسجية الحرة الخالصة، ونشأت في الأدب فروع وفنون، لم تكن معروفة من قبل إلا قليلًا.

والخلاصة: قد تطور كل شيء تطورًا يلائم البيئة والعقل والدين.

أما الشعر: فلم يضعف في هذا العصر، بل قوي ونما وتطور في ألفاظه ومعانيه وأوزانه وقوافيه وأغراضه وفنونه.

ألفاظه: رقَّت وسهلت فبعدت جدًّا عن ألفاظ الشعراء في العصر الإسلامي أيام جرير والفرزدق والأخطل، فإذا قرأت شعر بعضهم كمسلم بن الوليد وأبي العتاهية والعباس بن الأحنف فكأنك تقرأ كلامًا منثورًا، لولا الوزن والقافية.

معانيه: تطورت معاني الشعر فانصرفوا عن المعاني البدوية، أو المعاني البدوية المتأثرة بالحضارة، إلى المعاني الحضرية الصرف، فبعد أن كان الشعر الإسلامي يصدر عن الطبع بلا تكلف، أصبح متحضرًا يسيطر عليه العقل، ويرده إلى ميدان الخيال الفسيح، وإذا عدا الشاعر ذلك عدوه منه تقصيرًا عن الإتقان الفني.

أوزانه: ورغب الشعراء عن الأوزان الطويلة، وفضلوا عليها الخفيفة السهلة القصيرة، ولاءموا بينها وبين موضوعاتهم، فاختاروا للغزل والمجون أوزانًا تلائمها، وإذا مدحوا الخلفاء والوزراء أو رثوا أو جدُّوا في أمر، فضلوا الأوزان الطويلة، ويسروا على أنفسهم في القوافي، واختاروا أسهل الألفاظ وأحبها للسمع، وتجنبوا عيوب الشعر: كالإيطاء والإقواء والإكفاء والسناد.

أغراضه:

الشعر السياسي:

لم يطل عهد الشعر السياسي في هذا العصر إذ لم تبقَ حاجة إليه، ورغب الخلفاء عنه فأصبح الشاعر لدى الخليفة كالنديم له، وذلك بعد انحلال

الأحزاب، فضعف الشعر السياسي حتى أصبح كنوع من الهجاء يقوله الشاعر متقيًا، عند سنوح الفرصة.

الغزل:

أما الغزل العذري، فامَّحى إلا قليلًا؛ لأن العفة والطهارة لم تكن من مميزات هذا العصر، فالجواري والغلمان كانت تباع في الأسواق بيع السلع، أما الغزل العادي فتطور ولم يعد صورة صادقة للعاطفة وميل النفس، وبقي محفوظًا كفنٍّ موروث لا ينبغي أن يضيع، وظهرت بدعة جديدة في الغزل، استنبطها فساد البيئة وكثرة الرقيق، وهذا الغزل هو المعروف بغزل المذكر، وهو وصمة في جبين أدبنا.

الهجاء:

أما الهجاء فازداد قبحًا وإقذاعًا وفحشًا يبحث فيه عن السيئات.

المدح:

وأما المدح فتجاوزت فيه المبالغة الحد، وبعد فيه الشعراء عن الاعتدال الذي هو من مميزات الطبع العربي الخالص، فانحطَّ به بعض الشعراء واتخذوه أداة لكسبهم بلا حياء ولا كرامة.

المجون:

وأشد الشعر نموًّا في هذا العصر، شعر المجون ووصف الخمر، وهو ما نسميه بشعر القصور، فتهالك الناس عليه لفساد أخلاقهم وانحلال روابطهم الاجتماعية، وتسلط الإماء على الحياة المنزلية واستئثارهن بمكان الحرائر، وإتقانهن العربية وآدابها، وبروزهن للناس واشتراكهن في حياة العبث واللهو جهرًا، وتسلط الرقيق من غلمان الترك والروم على نفوس الزعماء والسادة، حتى صاروا يدبرون القصور والثروة كما يرغبون، وساعد أيضًا على اشتداد هذا النوع من الشعر، ظهور المذاهب الفلسفية والمقالات الدينية وتسلط الشك على النفوس.

الزهد:

وظهر فن جديد، وهو الزهد، دعا إليه اتصال العرب بالفرس وانتشار الحكمة الفلسفية الفارسية والهندية، ظهر في شعر أبي العتاهية، كما ظهر في نثر ابن المقفع.

الشعر التعليمي:

وظهر نوع جديد من الشعر هو الشعر التعليمي؛ أي نظم فنون العلم شعرًا ليسهل حفظها؛ كنظم كليلة ودمنة، وقصائد في الفقه.

الوصف:

أما الشعر الوصفي فتبدل واشتد، فبعد أن كان البدوي يصف ناقته وخيله وصحراءه، وصفوا الحضارة وقصورها والبساتين والخمارات والكئوس والصيد، فوصفوا هذا الأخير كما كان يفعل الفرس، فدققوا في وصف الكلاب والجوارح، وكان الرجز أداة لهذا الوصف، وشعراء هذا العصر طبقات يتبع بعضها بعضًا، ولكل طبقة زعماء، وزعماء أولى هذه الطبقات ثلاثة: بشار ابن برد، والسيد الحِمْيَري، ومروان بن أبي حفصة.

(١) بشار بن برد:

نسبه: بشار بن برد بن يرجوخ، كنيته أبو معاذ، لقبه المرعث، أبوه مولى امرأة عقيلية، حرفة أبيه طيان، فبشار عربي عجمي، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كثير التبرم بالناس لعماه، متلون في ولائه، يكره العرب ويحث الشعوب على كرههم، ويتعصب لهم أحيانًا ويتشيع للعلويين، كان الناس يزدرونه حتى يخرج عن طوره، ولولا خوفهم لسانه ما انفكوا عنه.

شخصيته: ضخم مجدور طويل جاحظ العينين يغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس منظرًا وعمى، وفيه يقول حماد عجرد:

وأعمى يشبه القرد إذا ما عمي القرد

لم يرَ الدنيا قط، وقال والده إنه لم يرَ مولودًا أعظم بركة منه، وكان متوقد الذهن ذكي القلب، وقد زعم أن العمى يقوي الذكاء فيتوفر الحس وتذكو القريحة، وقد قال الشعر وهو ابن عشر سنين، وما بلغ الحلم حتى هابه الناس للسانه، هجا جريرًا ولم يردَّ عليه.

زعامة الشعر: قلَّده إياها رجال عصره لأسباب: هجوه العلماء، اتباع أسلوب البادية وألفاظهم، وتحضير الشعر، كثرة المعلمين عليه، غزله الرقيق الذي أحبه الظرفاء والخالعون ورووه فهبت ريحه، أضف إلى ذلك ما لبشار من صنعة وفن، وقد قال فيه الجاحظ: كان بشار يدين بالرجعة، ويكفِّر الأمة، ويقدِّم النار على الطين، حيث قال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وكان الأصمعي يشبهه بالنابغة والأعشى، ويقول عنه خاتمة الشعراء.

ادعاؤه: معتد بنفسه يرى فيها كل ذكاء، يرى نفسه أشعر الناس وعلى الناس أن يقولوا ذلك ويعترفوا به، وقد قال عن نفسه: من أين يأتيني الخطأ وقد نشأت في حجر ٨٠ شيخًا من بني عقيل الفصحاء، ونساؤهم أفصح منهم.

ومع هذا نرى لبشار شعرًا ركيكًا مبتذلًا لا يقوله فصحاء العرب، كقوله:

ربابة ربـــــة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصـــوت

وقوله:

إنما عظم سليمي قصب قصب السكر لا عظم الجمل

فإذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل

بشار والنحاة: انتقده الأخفش فهجاه، فاسترضاه وسكت عنه، وصار يحتج بشعره، وكذلك فعل بسيبويه.

استهتاره: كان مستهترًا في شعره، خالعًا فاحشًا، فنهاه الخليفة المهدي عن الغزل والتشبب بالنساء وإغرائهن على الفحشاء، وكان قليل الدين

لا يصلي، وقد امتحن ذلك أصحابه بوضعهم ترابًا على ثيابه فيرونه لم يقم، وقد سئل في ذلك فقال: الذي يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة.

نباهته: جاءه رجل يسأله عن بيت فجعل يفهمه فلم يفهم، فقاده إلى السبيل حتى أوصله وقال له هذا البيت:

أعمى يقود بصيرًا لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه

صدقه: كان بشار يقول الشعر عن غير عاطفة، فهو غير صادق في لهجته، قال ابن الصياح: دخلت على بشار وهو منبطح في دهليزه كأنه جاموس، فقلت له: يا أبا معاذ، من القائل:

في حلتي جسم فتي ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال: أنا، قلت: ما الذي حملك على هذا الكذب، وإنني لأرى أن لو بعث الله الرياح الأربع التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من مدخلك؟ وقس على هذا من شعر بشار.

كيف مات: هجا المهدي لأنه لم يجزه، ولأنه لا يرعى حرمة محسن أو مسيء، بل يهجو أيًّا كان بسبب وبلا سبب، وكان هجا المهدي ووزيره يعقوب بن داود معًا بقوله:

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفـــــــة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الرقِّ والعود

فلما أخبره يعقوب بالهجاء، انحدر إلى البصرة للنظر في أمرها، فسمع أذانًا في وقت ضحى النهار، فقال: انظروا ما هذا الأذان، فقالوا له: بشار يؤذن وهو سكران، فأمر بجلده ٧٠ سوطًا، فكان إذا أوجعه السوط قال: حس، فقالوا: يا أمير المؤمنين انظر إلى زندقته فإنه لا يسمِّي، فقال بشار: ويحكم! أطعام هو فأسمِّي عليه، فلما ضرب ٧٠ سوطًا بان الموت فيه، فألقي في سفينة حتى مات، ثم رمي في البطيحة.

بغض الناس له: فلما علم أهل البصرة بموته هنَّأ بعضهم بعضًا، وفي حياته كان السعيد منهم من لا يعرف بشارًا، ولم يمش في جنازته غير جارية له، وفيه يقول شاعر من قصيدة:

بل زعموا أن أهله فرحًا لما أتاهم نعيه سجدوا

سخريته: أنشد المهدي قصيدة، وكان خال المهدي ضعيف العقل، فأقبل على بشار يسأله: ما صناعتك؟ فأجابه بشار: أثقب اللؤلؤ، فضحك المهدي وقال له: أتتنادر على خالي؟ فقال بشار: وماذا أصنع به، ألم يرني رجلًا أعمى؟ رمَحَت رجلًا بغلة، فقال: الحمد لله شكرًا، فقال له بشار: استزده يزدك، ومر قوم يحملون جنازة مسرعين بها، فقال بشار: ما لهم مسرعين، أتراهم سرقوه؟ أنفق غلامه عشرة دراهم على جلاء مرآته، فتعجب بشار من جلاء مرآة لأعمى، فقال: لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة، ما دفعت أجرة من يجلوها ١٠ دراهم.

سرعة خاطر: قالت له زوجته: لماذا يهابك الناس على قبح وجهك؟ فقال: ليس من حسنه يُهاب الأسد، وقد كان جالسًا أمام بيته وبيده مخصرة وأمامه طبق تفاح، فحاول أحدهم سرقته، فضربه بالقضيب، فقال له الرجل: أوَ أنت أعمى؟! فأجابه: يا أحمق، وأين الحس؟!

نفسيته: مجَّان مازح، وإنما مزحه مؤلم، كان في السبعين كأنه في ريعان صباه، والدليل أذانه وهو سكران، كان خليعًا شهوانيًّا، شَرِه في الملذات هائج العاطفة أبدًا، تدل على ذلك أشعاره، جريء جسور لا يستحي «الحيا في النظر» غير صبور وغير متقن لعمله، والدليل على ذلك إدخاله في شعره ألفاظًا لا أصل لها، جبان ثقيل الظل يخاف على روحه أيما خوف لأنانيته وحبه لذاته، وكان يهجو ليعيش لا لأنه يحب الهجاء، وهجاؤه مجموعة عيوب يضعها فيمن ينقم عليه أو يطمع بماله.

شعره: وصف وقائع حال تأتي عفوًا بلا تفكير وكد ذهن، غزله وصف أشياء ظاهرة كالألوان والمحسوسات وبعض الحركات، لا يفهم من الحب إلا المادة فقط، فغزله لا يمثل عاطفة بل التهالك على اللذات والاستقتال في سبيلها، غزير المادة، غير متكلف في ألفاظه ومعانيه، شعره كله ترغيب في الفجور، كل هجائه فحش، ونكتته تضحك وتؤلم معًا، جمع جزالة العرب إلى فن المحدثين، ليِّن إذا تغزل أو هزل، متين إذا مدح، مدحه لا يخلو من هجاء.

(٢) السيد الحميري:

نشأ في العصر الأموي، وقال الشعر وأجاده في العصر العباسي، شيعي المذهب، قال أكثر شعره في الإمام علي وبنيه، ومدح العباسيين وأخذ جوائزهم، وكان يجاهر بحضرة العباسيين بحب علي وبنيه، بيد أنه يكره أعداءهم الأمويين ويفضلهم عليهم ويستبشر بعهدهم.

صفاته: كان ضعيف العقل، مضطرب النفس، شعره سهل، ومعانيه منها الجيد والمبتذل، مات ١٧٣.

(٣) مروان بن أبي حفصة:

فارسي الأصل، نشأ في العصر الأموي، إلا أن تفوقه في الشعر لم يظهر إلا أيام العباسيين، لم يترك اليمامة التي نشأ فيها، فظل بعيدًا عن التأثير الفارسي، ولذلك تظهر في شعره الرصانة والمتانة، فهو جزل اللفظ صلب المعنى كشعراء المسلمين الكبار، وقد مدح في أول عهده معن بن زائدة، فأجزل عطاءه.

هدفه: ولما طار صيته، ذهب إلى العراق ومدح الخلفاء العباسيين، ووجَّه هذا المدح نحو الدفاع عن الخلافة العباسية، وإنكار حق العلويين فيها، فأجزلوا له العطاء، وكانوا يشترون منه البيت بألف درهم، وقد كان يجوِّد

شعره ويبطئ في قوله، وأشهر بيت قاله في الدفاع عن حق العباسيين بالخلافة:

أنَّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

لقد كان تأثير الفرس في هؤلاء قويًّا؛ وخصوصًا بشار بن برد والحميري، أما تأثرهم باليونان فكان ضئيلًا بالنسبة للطبقة التي جاءت بعدهم، وزعماؤها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد.

(٤) أبو نواس:

هو الحسن بن هانئ، تلميذ والبة الحباب.

كنيته: الأولى أبو علي، إنما قال له خلف الأحمر الذي كان شديد الميل إليه: أنت من أشراف اليمن فتكنَّ بالذوين، فتكنَّى بذي نواس.

تربيته: لسوء حظ الأدب، لم ينشأ نشأة صالحة، بل ربي في كنف والبة وأمثاله من الفساق، فكان من شخصيته ما أرانا إياها أدبه وشعره وأخباره.

شخصيته: جميل الصورة، خفيف الروح، فصيح اللسان، هازل، سكير، مستخف في الدين.

لغته: قال الجاحظ: ما رأيت أحدًا أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه.

أثره في الأدب: أحسن بالخروج على خطة الشعر الجاهلي، وترك البكاء على الأطلال، وجعل الشعر شعرًا مصدره الشعور، وأساء إلى الأدب العربي بنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر، وتلك جناية ووصمة لا تغتفران له.

امتيازه: تفوق بوصف الخمرة والمجون والغزل والمداعبة؛ غرامية أو غير غرامية.

الخمرة: وصفها كثيرون في كل العصور، ففي الجاهلية وصفها وأجاد عدي بن زيد العبادي، وكانت أبياته تغنى للوليد بن يزيد، وأجاد وصفها

الأعشى والأخطل، أما أبو نواس فلم يصفها وصفًا فقط سبَقَ فيه مَن تقدَّمه، بل قدسها تقديسًا:

اثن على الخمر بآلائها وسمها أحسن أسمائها

شعوبيته: عد النقاد له ما سنرويه لك، خروجًا على الأسلوب القديم، ثم عادوا فعدوه «شعوبية». أما الحقيقة فهي أن أبا نواس مستهزئ بكل شيء، فاسمع ما يقول:

عاج الشقي علـــــــــى رسم يسائله	**وعجت أسأل عـــن خمَّارة البلد**
يبكي علـــــى طلل الماضين من أسد	**لا درَّ درك قل لـي من بنو أسد**
ومن تميم ومـــــــــن قيس ولفهما	**ليس الأعاريب عند الله من أحد**
لا جفَّ دمع الذي يبكي علـــــى حجر	**ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد**

تهتكه: كان خليعًا متهتكًا لا يبالي بحدود الأدب والدين ولا يراعي شيئًا من هذا، قال في الخمر:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هـــي الخمر	**ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجـــهر**
فعيش الفتى في سكرة إثر سكـــــــرة	**فإن طال هذا عنده قصر الدهـــر**
فبُحْ باسم من أهوى ودعني من الكنى	**فلا خير في اللذات من دونها ستر**
ولا خير في فتك بدون مـــــــــجانة	**ولا في مـــــجون ليس يتبعه كفر**

وقال أيضًا:

لا تبكِ ليلى ولا تطرب إلـــــى هندِ واشرَب على الورد من حمراء كالوردِ
كأسا إذا انحدرتْ في حلق شاربها أجدتْهُ حُمرتَها في العين والخـــــــدّ
فالـخمرُ ياقوتة والكـــــأس لؤلؤة من كف جارية ممشوقة القـــــــــدِ

أيضًا:

اشرَب- فُديتَ -علانيةْأمُّ التستّر زانيـــــــه
اشرب فديتكَ واسقني حتّى أنامَ مكانيـــه

لا تقنعنَّ بسكـــــــرة حتّى تعودَ بثانيــه

أيضًا:

فتمشّتْ في مفاصلـــــــهم كتَمَشّي البُرءِ في السّقـمِ
فَعَلَتْ في البيتِ إذ مُـزِجتْ مثل فِعل الصبح في الظُلَم
فاهتدى ساري الظّلام بـــه كاهتداء السَفْرِ بالعـــــلم

من مجونه: لم يبرع أبو نواس هذه البراعة إلا لأنه صادف أرضًا خصبة وندماء لا ينفكون عن معاقرة الخمرة. ففي ذات ليلة قالوا: أين نجلس الليلة؟ فقال أبو نواس: فلتكن الدعوة شعرًا، والمجيد منا تقبل دعوته. فنظموا في ذلك وكانوا ستة، فأجادوا جميعًا، فكانت الجلسة في القهوة، ومن مجون أبي نواس، كما روى ابن منظور، قال: كان أبو نواس مع المصلين في المسجد فإذا بالإمام يقول: قل يا أيها الكافرون...فصاح أبو نواس من وراء: لبيك، فأخرج.

رجاؤه: كان رجاؤه بعفو الله عظيمًا كما يقولون، ولذلك أكثر من المعاصي معتمدًا على عفو الله، حتى ختم همزيته المشهورة بهذين البيتين وهما موجهان «للنظام» زعيم المعتزلة الذي كان يقول لا يغفر الله لأصحاب الكبائر:

قولوا لمن يدعي بالعلم فلسفة عرفت شيئًا وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرءًا حرجًا فإن حظركـــه بالدين إزراء

مدحه: كان عربيًّا خالصًا إذا مدح أو رثى، وقد مدح محمد الأمين وكان نديمه، ومدح البرامكة.

هجوه: وقد هجا بظرف فقال:

خبز المفضل مكتوب عليه ألا لا بارك الله في ضيف إذا شبعا

مع الجارية جنان: أحب هذه الأنثى حبًّا صادقًا، وقال فيها شعرًا كثيرًا، ويروون أنه ذهب فحج عندما حجت جنان.

وفي ذلك يقول:

حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعني وإياها المسير

زهده: ويقال إنه زهد في آخر عمره، ومما قاله في الزهد:

من اتقى الله فذاك الذي سيق إليه المتجر الرابح

شمِّر فما في الدين أغلوطة ورح لما أنت له رائح

ما قيل فيه: قال أبو تمام: أبو نواس ومسلم بن الوليد، اللات والعزى وأنا أعبدهما.

قال النظام: كأنما جمع الكلام له فاختار أحسنه.

قال إبراهيم بن العباس: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس، علمت أن ذلك عنوان أدبه.

قال العتبي: عندي أشعر الناس أبو نواس، وعند الناس امرؤ القيس.

قال ابن السكيت: ارِ من المحدثين لأبي نواس فحسبك.

خلاصة: متقن اللغة قولًا وعملًا، عربي خالص إذا جد، ظريف إذا هزل، أخذ عن العرب قوافيهم ولفظهم المتين الجزل، أخذ عن الفرس أوصافهم المادية للحياة المتحضرة، أخذ عن اليونان معانيهم الدقيقة واصطلاحاتهم الفلسفية، أشد شعراء عصره ثورة على القديم، يفضل الحضارة على البداوة.

(٥) أبو العتاهية:

حياته: أبو إسحاق اسماعيل بن كيسان، ولقبه أبو العتاهية. ولد بالأنبار وكان يبيع الجرار بالكوفة، كان في أول شبابه عشيرًا للخالعين مستهترًا، ثم ظهرت مقدرته الشعرية، فقال الشعر، وطرق أبواب الخلفاء، ونال جوائز المهدي، وأحب جارية للخليفة اسمها عُتبة، فخاب في حبه وتنسك،

وصار يقول الشعر في الزهد ويحث على ترك الدنيا وملاذها، ولكنه ظل محبًّا للمال، وعلى زهده بقي يمدح الخليفة ورجال دولته. ثم امتنع عن الشعر، فحبسه الرشيد لأنه لم يلبِّ طلبه، وما أطلقه حتى قال الشعر الذي طلبه منه، وأدرك المأمون وكان من شعرائه وبطانته ينال جوائزه.

آثاره: ديوانه وليس فيه كل شعره.

أغراض شعره: غزل ومدح ورثاء وهجاء وعتاب واستعطاف، ثم ترك هذه كلها ووقف شعره على الزهد والوعظ والحكمة والمثل.

زهده: روي أنه كان يلبس المِسْح ويقضي الليالي ساهرًا مصليًا، ثم يدع المسح ويعود سيرته الأولى لاهيًا، أما مذهبه في زهدياته فمواعظ أدبية ونظرات في الحياة والموت: الدنيا زائلة فلنحتقرها، ولنقنع بما يُقيتنا، وزهدياته تخاطب العقل لا العاطفة والقلب، وزهديات أبي نواس صادرة من قلب محترق طافح بحب الحياة، أما زهديات أبي العتاهية فكثيرة التكلف، صادرة عن العقل، وقد اشتهرت بما فيها من حكمة جامعة.

قريحته: سيالة، وقد قال عن نفسه: لو أردت أن أتكلم شعرًا لتكلمت، ولكن هذه الدعوى ليست بذات بال فالشعر غير النظم، وهو لو قال نظمًا لكان أصدق.

ساحة الملوك: ولأجل كثرة الساقط في شعره، قال أحد النقاد القدماء: شعره ساحة الملوك، في كناستها التراب والذهب.

فنه: شعره سهل جدًّا، ولولا الوزن والقافية لكاد أن يكون نثرًا، وله في فنه سيرة بخلاف شعراء عصره الخلعاء، وهذا ما جعل له هذه الشهرة، ولكن لأبي العتاهية وثبات لا يستهان بها إلا أنها قليلة بالنسبة لشعره الكثير.

(٦) أبو تمام:

نسبه: حبيب بن أوس الطائي، نشأ بجاسم، وهي قرية من ناحية منبج من أعمال حوران. كان يخدم أباه الحيَّاك، ثم ذهب إلى مصر وصار

يسقي الماء في جامع عمر، لم يعمَّر كثيرًا، وقد توفي بالموصل، وقبره فيها خارج باب الميدان على حافة الخندق.

صفاته: شاعر مطبوع، فطن ذكي، دقيق المعاني، سبق الشعراء إلى المطابقة، السليم من شعره لا يعلق به أحد، ورديئه رذل جدًّا.

الرأي فيه: مريدوه يفضلونه على كل سابق ولاحق، وكارهوه يحطون من قدره جدًّا، وينسبون إليه سرقة شعر غيره.

معانيه: كان يأخذ كثيرًا منها مما يسمعه، ومنها البيت المشهور:

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملًا إن السماء ترجَّى حين تحتجب

أخذه من مخنث يعاتب صديقًا له، واتهمه دعبل أنه أخذ قصيدته التي مطلعها: «كذا فليجل الخطب» من مكنف أبي سلمى، قالها في رثاء زفافة العبسي.

محفوظاته: كثيرة جدًّا، يقال إنه كان ينشد أربعة آلاف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقطعات.

كتاب الحماسة: حبسته الثلوج في همذان عند رجوعه من عند الأمير عبد الله بن طاهر من خراسان، فنزل على أبي الوفاء بن سلامة الذي كان له خزانة كتب نادرة، فطالع فيها كثيرًا، وجمع كتابه «الحماسة» الذي قيل في أبي تمام بسببه: «إنه في انتقاء شعر الحماسة أشعر منه في شعره.»

شعره: يفضل تجويد المعنى على تسهيل العبارة. ولما رأى السلاسة تنقصه عمد إلى الجناس والمطابقة والاستعارة، فأثر ذلك في شعره وكان كتكلف ظاهر.

ديوانه: ديوانه جمعه أبو بكر الصولي مرتبًا على الحروف الهجائية، وجمعه علي بن حمزة الأصبهاني مرتبًا على الأنواع.

ذاكرته: غريبة جدًّا، قال البحتري: أنشدت سعيد بن أسلم الطائي قصيدتي: أأفاق صب في الهوى فأفيقا، وكان عنده رجل لا أعرفه، فلما انتهيت، قال لي

ذلك الرجل: أما تستحي أن تنتحل شعري وتنشده بحضوري؟ وأنشد القصيدة برمتها، فتغير وجه سعيد وخرجت من عنده كاسف البال. وبينا أنا كذلك إذا برجل يدعوني ضاحكًا، فإذا هو أبو تمام وقال: «الشعر لك» وإنما هذه عادتي أحفظ القصيدة من مرة.

بائيته المشهورة:

قالها بالمناسبة الآتية: زحف توفيل بن ميخائيل ملك الروم على البلاد الإسلامية، حتى بلغ زبرطة، مولد المعتصم، وأغار على ملطية وغيرها، فقتل وسبى كثيرين، ومن جملة السبايا كانت امرأة هاشمية لطمها رومي على وجهها، فصاحت «وا معتصماه.» فلما بلغ المعتصم الخبر كانت بيده كأس فطرح الكأس وصاح لبيك لبيك! ثم جهز جيشًا عرمرمًا زحف به على بلاد الروم حتى بلغ عمورية، فحاصرها ورماها بالمنجنيق ودخلها وقتل نحو ٩٠ ألفًا منها، وهنا لا بد من هذه الحكاية، فنوردها ملخصة جدًّا؛ قالوا: عندما طال الحصار على عمورية، جمع المعتصم المنجِّمين، فقالوا: إنها لا تفتح إلا في زمن نضج التين والعنب. وظهر في ذلك العام نجم مذنَّب تقوَّل المنجمون فيه، وزعموا مزاعم كثيرة. أما عمورية ففتحت قبل الزمان الذي حدده المنجمون، فقال أبو تمام قصيدته الرائعة، وفيها ردَّ على المنجمين وغيرهم، وإليك منها ما يشير إلى الحوادث:

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجـــــــد واللعب

والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيـــها ومن كذب

يبدع أبوتمام –عادةَ– في وصف المرئيات، يشخِّص كل شيء، ومتى اتقدت عاطفته اختفى التكلف الذي يظهر في أكثر شعره. وقد اشتد الإعجاب به من أجل قصيدته الأولى: السيف أصدق... إلخ، التي سبق ذكر بعضها، والثانية

في حرق الأفشين ومطلعها: الحق أبلج والسيوف عوار، ولعل أبا تمام هو أول الذين دخلوا موضوعهم رأسًا، بدون «مقبلات».

(٧) دعبل الخزاعي:

حياته: أبو علي دعبل بن علي الخزاعي، ولد بالكوفة وأقام ببغداد، من متقدمي الشعراء ومجيديهم، إلا أنه كان هجَّاء خبيث اللسان لم يسلم من لسانه أحد، أحسن إليه أم أساء، ولم يفلت منه خليفة أو وزير أو نبيه شأن. فهو عندي الشاعر السياسي حقًّا وإن تقدمه ابن برد، قضى حياته كلها شريدًا هاربًا خائفًا. وقد قال عن نفسه: أنا أحمل خشبتي منذ خمسين عامًا، ولا أجد من يصلبني عليها.

أخلاقه: ناكر الجميل، ينسى العطايا، وهو قد هجا الرشيد على إحسانه إليه، وقد زاد على كل هذا اللصوصية، فكان يكمن للناس ليلًا، وقد رصد صيرفيًّا يهوديًّا طمعًا بما معه، فقتله، ولم يكن معه غير ثلاث رمانات في خرقة، فاشتد عليه الطلب فاختفى في الكوفة.

قيمته: مر الهجاء، جرت بينه وبين الشاعر أبي أسعد المخزومي مهاجاة شديدة، والفرق بينه وبين بشار، أن بشارًا كان أسفل لفظًا وأضيق نفسًا وأضعف تأثيرًا، إذ لم يكن لبشار حزب سياسي يحميه ويؤيده، أما دعبل، فكان يدافع عن العلويين ويحتمي عند أهل اليمن.

لغته: لغته بالإجمال أصح من لغة بشار، والكثيرين من معاصريه، حتى فضَّله البحتري على مسلم بن الوليد.

أمثلة من هجائه: قال يهجو الرشيد لما مات وقُبِر في الري، وهناك قبر الرضا من ولد علي بن أبي طالب:

قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرِّهم، هذا من العبر

في المعتصم:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولـــم تأتنا عن ثامن لهم كتب

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيار إذا عدوا، وثامنهم كلب
وإني لأُعلـــي كلبهم عنك رفعة لأنك ذو ذنب وليس له ذنـــــب

****

الفصل الخامس

مدخل إلى الشعر الأندلسي

أولا: الشعر والشعراء

الفتح العربي:

كان الفاتحون لإسبانيا من العرب لا يعرفون من الثقافة العربية إلا القرآن الكريم وعلومه، والشعر الغنائي المشرقي الذي كان ذائعا أواخر القرن الهجري، وكذلك كان شعر هؤلاء الفاتحين لا يخرج عن أن يكون فخراً بالأصل، أو تغنياً بالشجاعة في الحروب، أو حنيناً إلى الوطن الأم، أو بكاء على الشهداء في الفتوح، ولم يبق لنا من شعر هذه الفترة إلا أخباره ووصفه. وكان لانتشار الإسلام وحرص المشرق على سلامته في تلك البلاد النائية، أن رحل كثير من علماء الدين بعلمهم إلى إسبانيا، فنمت الدراسات الدينية وانتعشت، وتبنى الأمويون في الأندلس، لأسباب سياسية مذهب مالك بن أنس الذي نشره الأوزاعي وقامت مدرسة فقهية نشرت «الموطأ» لمالك. ويذكر منهم ابن حزم الأندلسي في دفاعه عن الأندلس: عيسى بن دينار (٨٢٧)، وابن حبيب (٨٥٢)، والعتبي (٨٦٩) وابن مزين (٨٧٢) والقطاني (٨٨٢)، وقد تابع هذه المدرسة وسار على نهجها، تلاميذها: ابن لبانة (٩٢٦)، وابن عيمان (٩٤١)، وابن اصبع (٩٥١) وأحمد بن سعيد (٩٦١) وأهمهم ابن عبد البر (١٠٧٠)، وحاول «بقي بن مخلد» (٨٨١) عبثاً عند عودته من المشرق، أن يدخل مذهب الشافعية. ويعد ابن حزم تفسير ابن مخلد أفضل من تفسير الطبري. ولكن مذهب الظاهرية أدخله ابن قاسم، وقواه المنذر بن سعيد البلوطي، قبل أن يشهره ابن حزم، الذي يعد العلم الأكبر في كل نواحي التأليف الأدبي، في النصف الأول من القرن ١١ والذي يعد كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل المعروف بمجرد «الفصل» أكبر مصدر لمعرفة الفكر الديني في الإسلام، وغيره من الأديان المعروفة إذ ذاك، وعرف الأندلسيون مذهب المعتزلة وعرفوا الفلسفة، تدل على ذلك كتب ابن

مرة (٩٣١) ومدرسته، وذاعت علوم اللغة ولكن وفود «أبي علي القالي» (٩٦٧) من العراق أنعش هذه الدراسات وكتابه «الأمالي» صورة لدروسه في جامع قرطبة، كما ألف كتاب «البارع» وكتاب «النوادر» وكان من معاصريه: الرياحي (٩٦٨) وابن عاصم (٩٩٢) وابن القوطية الذي درس النحو، وألف ابن سيده (١٠٦٦) كتابه الأشهر «المخصص». وألف الأندلسيون في التاريخ خالطين بين التاريخ والأساطير أول الأمر، كما فعل ابن حبيب. ثم ألفوا حوليات على نسق كتاب الطبري الذي أكمله ابن سعد (٩٨٠) بحوليات حديثة.

التاريخ:

ولكن أكثرهم كان يهتم بتاريخ إسبانيا، ويتبع التسلسل حسب الملوك والأمراء. وذاعت أيضاً كتب التراجم: تراجم للقضاة والأطباء والكتاب. وأهم نوع كان الذي يؤرخ منذ الفتح إلى عصر المؤلف، مثلما نجد عند الرازي (٩٥٥)، وابنه عيسى، الذي نقل عنه ابن القوطية في «أخبار مجموعة»، كما نقل عنه ابن حيان في كتاب المقتبس من أنباء الأندلس المعروف بمجرد «المقتبس»، وأهم مؤلف تاريخي في هذه الفترة هو كتاب «طبقات الأمم» لسعيد الطليطلي (١٠٦٩) الذي ترجم فيه لليونان والرومان أيضاً.

الجغرافيا:

وأهم من ألفوا في الجغرافيا إلى جانب الرازي – الذي وصف إسبانيا وصفاً بارعاً (عثر على مخطوطه أخيراً) – هو أبو عبيد البكري (١٠٩٤). وفي هذا العصر، ازدهر التأليف في الرياضة والفلك، وبتأثير العالم مسلمة المجريطي (١٠٠٧)، وازدهر الطب وعلوم النبات في عهد عبد الرحمن الثالث، ومن هؤلاء المؤلفين – أمثال الزهراوي (١٠١٣) – من عرفته أوروبا في القرون الوسطى، ولقد تأخر ظهور التأليف الأدبي، ويمكن أن نعد «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٩٤٠) أول مؤلف في الأدب الأندلسي، وإن كانت

محتوياته مشرقية، ولكن هذا النوع من التأليف لم يذع، ولم يجد له في العصور القريبة منه من يقلده. وجاء قرطبة في إمارة عبد الرحمن الثاني، المغني العراقي «زرياب» (٨٥٧)، فصبغ المجتمع كله بصبغة بغدادية، إذ كانت بغداد المثل المحتذى، وأدخل زرياب في البلاط وفي الحياة العامة تقاليد بغدادية عاشت طويلاً من بعده. ومنذ القرن التاسع، يمكن أن نقول أن العنصر العربي والعنصر الإسباني، الذين عاشا طويلاً يجهل كل منهما الآخر، قد امتزجا أخيراً فأوجدوا الفرصة لأدب عربي جديد كل الجدة، ويتجلى ذلك في شعرهم الجديد: الموشحات.

اللغة في العهدين:

كانت حالة اللغة في عصر الولاة، بين العرب ومستعربي البربر، كما كانت في عهد الأمويين في الشرق، وفي زمن الدولة الأموية الأندلسية كانت تنهج نهج الدولة العباسية وتحاكيها وتنافسها في كل شيء، وفاقتها في البناء، وبلغت حضارتها ورقيها في العلوم والآداب غاية المجد زمن الخليفتين الناصر والمستنصر ابنه، وزمن الحاجب المنصور الذي استبد بأمر الدولة بعدهما، ولما انتشرت الفتن في آخر عهد الأمويين انقسمت البلاد إلى عدة ممالك مستقلة، مدة نصف قرن، فقام في كل صقع منبر وأمير، حتى قال فيها الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتمد فيـــــــها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخًا صورة الأسد

وقال شاعر آخر:

وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة منها أمير المؤمنين ومنبر

لم تكن حال الحضارة والعلم والأدب فيها أقل منها زمن الدولة الأموية، إلا أنها تقهقرت عندما صارت الأندلس ولاية تابعة للملوك البربر في مراكش من

المرابطين والموحدين، وانتعشت قليلًا في زمن بني الأحمر، آخر دولة إسلامية في الأندلس.

الشعر الأندلسي:

نقل العرب إلى الأندلس أخلاقهم وعاداتهم وأدبهم وشعرهم، فاستخدموا الشعر فيما كانوا يستخدمونه في عصر بني أمية بالمشرق؛ من أنواع الحماسة والحض على الجهاد والدعوة إلى العصبية وإثارة الفتن. ولما خمدت الفتن وقرَّ الملك في بيت عبد الرحمن، هبَّ الشعراء ينحون مناحي الشعر التي فشت في الإسلام، فصار الشعر صناعة فئة من المتأدبين يتكسَّبون به بمدح الخلفاء والأمراء والقواد والانقطاع إليهم، وشجعهم هؤلاء أمويهم وعلويهم وبربرهم ببذل العطاء لهم وتقريب منازلهم منهم. فاتخذوهم بطانة وندماء، وأعوانًا ووزراء، إذ لم تكن صناعة الشعر مزرية بعظماء الناس هناك، بل كانت حلية كل متعلم، فقلما عجز عن قول الشعر إنسان منهم، بل نظمه كثيرون منهم حتى الأميون، ولم يأنف من نظمه الخلفاء والوزراء والأمراء والفقهاء، فأولع به كل الطبقات حتى النساء، ومنهن من بارين الرجال فيه.

ولا نسمع بفقيه أو فيلسوف أو طبيب أو رياضي أو مؤرخ إلا نراه شاعرًا بليغًا له مطوَّلات ومقطَّعات شعرية، في أغراض مختلفة؛ وذلك لجمال أرضهم وبيئتهم وطيب عيشهم وميلهم الفطري إلى الشعر؛ لأن أكثرهم من عناصر عربية.

وإذا لم يشتهر فيهم أمثال بشار وأبي نواس والمتنبي وأبي تمام والبحتري، فذاك لبعدهم عن المشرق مهد العربية وميدان التنافس العام فيها، ولقد نظم شعراء الأندلس في جميع الأنواع الشعرية والأغراض حتى الخمريات والمجون والموشحات والأزجال، ولكنهم فاقوا العباسيين في وصف مناظر الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة. وأشهر هؤلاء أبو البقاء الرندي في رثاء

الأندلس، ثم نظموا قواعد العلم شعرًا، وبعض الحوادث التاريخية، وقصروا عن المشاركة في الحِكَم التي تسير سير الأمثال، وكان شعرهم في الغزل غاية في الرقة، والخيال الشعري الجميل مادة معانيهم، وقلما أتوا في شعرهم بقضايا عقلية وأحكام فلسفية.

ولا نعرف إلا القليل عن الشعر الأندلسي في القرون الأولى للفتح، ولضياع المجموعات الأولى من الشعر، مثل كتاب الحدائق لابن فرج الجياني، يصعب علينا درس هذه الفترة. يقال أن سفير عبد الرحمن الثاني، يحيى الغزال قد كتب شعراً ملحمياً مستعملاً الأرجوزة، ويقال أن لتمام بن أمير، ولابن عبد ربه شعراً. ولكن الموشح في القرن ٩ هو الشكل الأندلسي الأول في الشعر، وكان أول أمره مقطعات منوعة القافية، وينتهي بخارجة في لغة رومانسية غير عربية، يمثل ازدواج اللغة في الشعر العربي لأول مرة، كما يمثل ازدواج الذوقين الفنيين، العربي والإسباني، وقد ظل الموشح غنائياً عربياً فصيحاً ولكن تنوعت فيه القافية، وزيدت الخارجة. ولما كان اكتشاف المخطوطات في مجموعات الموشحات يأتي كل يوم بجديد، فإنه من الصعب أن ندرس الموشح درساً كاملاً. وبالرغم من ذيوعها، واستساغة بعض نقاد المشرق لها، فقد ظلت نوعاً ثانوياً لشعبيتها إلى جانب الأشكال العربية القديمة التي تنوعت قليلاً في بلاط خلفاء المغرب. وأهمية الموشحات تزداد عند المستشرقين اليوم، بسبب علاقة الشعر الشعبي الإسباني بأوليات الشعر الأوروبي عند الشعراء الجوالين «التروبادور».

وأهم من أثر في المغرب من شعراء المشرق، هو المتنبي الذي شرح ديوان ثلاثة من أعلامهم: الشنتمري، الأفليلي، وابن سيده. وقد احتذاه في تنويع وإجادة، شعراء بلاط قرطبة. وظل الشعر الرسمي حتى القرن ١١ مقلداً ثم اتخذ لنفسه شخصية قوية جديدة. ولاشك أن خلفاء بني أمية شجعوا الأدب وعملوا على جمع الكتب: «مكتبة الحكم الثاني»، ولجزيل عطائهم ظهرت

طائفة من شعراء البلاط، أهمهم في هذه الفترة: «المصحفي» (٩٨٢). ولكن الشعر الأندلسي الحضري يبدأ بابن دراج القسطلي (١٠٣٠)، في عهد المنصور الذي أحرق مكتبة الحكم، خوفاً على الدين من العلم والفلسفة. ويعد البغدادي والرمادي من شعراء هذا النوع في هذه الفترة.

وتزعم ابن شهيد(١٠٣٥) حركة شعراء من أصل ارستقراطي، قاومت الموشح لشعبيته وتعصبت للشعر الفصيح وللعربية الأصيلة. وتظهر أفكاره تلك في كتابه «التوابع والزوابع». ويعد ابن حزم في تحليله للشعر العذري في «طوق الحمامة» من تلاميذ هذه المدرسة، وإن تكن شاعريته أقل درجة. ولم يؤثر سقوط الخلافة وقيام ملوك الطوائف في الشعر، بل أنه على العكس وصل إلى ذروته، وفي هذا العصر ازدهرت حركة جمع الدواوين والمختارات الشعرية ووصلتنا دراسة أيضاً عن الشعر في القرن الحادي عشر، نشرها المستشرق بيرس أخيراً وعلق عليها بدراسة وافية للشعر في القرن الحادي عشر، وإذا كان كل بلاط تخصص في حماية نوع من المعرفة، فالكل حمى الشعر، وعالج الشعر الكلاسيكي الجديد كل الموضوعات، وإن يكن الوصف، وصف الطبيعة والحيوان والإنسان، أكثر موضوعاته انتشاراً.

وشهر في قرطبة: ابن زيدون (١٠٧٠) الذي تغنى بحبه لولادة بنت المستكفي (١٠٩٥) التي كانت حياتها شعراً وألهمت شعراء إسبانيا، بل شعراء صقلية أيضاً، مثل ابن حمديس (١١٣٢). وفي بلاط المعتصم ظهر الشاعر ابن شرف (١١٣٩) وفي غرناطة شهر أبو إسحق الإلبيري (١٠٦٩)، وابن عبدون (١١٣٤). وفي عصر المرابطين الذي يبدو أنه جمع شمل الدولة الممزقة، خمد الشعر، فقد كان أكثر اهتمامهم بالدين. وفي بلنسية وحدها نجد الشعر المتحرر الذي شاع أيام ملوك الطوائف، بينما بسط سائر الملوك رعايتهم على شعر مديح تقليدي. وفي بلنسية نجد شعر الطبيعة والغزل عند ابن خفاجة (١١٣٨)، وشعر الطبيعة والخمر عند ابن زقاق (١١٣٥).

أيام الموحدين:

أما أيام الموحدين، فظهر ابن سهل (١٢٥١) والرصافي (١١٧٧). وإلى سقوط غرناطة لم ينبغ إلا لسان الدين بن الخطيب (١٣٧٤). وكان آخرهم ابن زمرك (١٣٩٣) وكلاهما لا يعد من الطبقة الأولى في الشعراء. ولما شعر الأدباء بأفول نجم الشعر في الأندلس أخذوا في جمع تراثه: فابن بسام (١١٤٧) يؤلف «الذخيرة» والفتح بن خاقان يؤلف «قلائد العقيان»، وابن سعيد (١٢٧٤) يستخلص من كتابه «المغرب» «رياض المبرزين» ليؤرخ الشعر في الأندلس. وإلى أن انتهى (الجزر)، وخرج العرب من الأندلس، نجد من يحمل لواء الموشح مثل الأعمى الطليلي (١١٢٦)، وابن بقي (١١٤٥)، ويقود لواء الزجل ويصل به القمم الفنية الرائعة: الشاعر ابن قزمان (١١٥٩).

وقد انتعش الزجل بفضله، وألف فيه كثير من شعراء الفترة الأخيرة: أما النثر، الذي بدأ أندلسيا بابن شهيد وابن حزم، فإنه سرعان ما مال نحو تقليد المشرق، ويدل على ذلك: «سراج الملوك» للطرطوشي (١١٢٦) وموسوعة البلوي (١٢٠٧) وطائفة المقامات التي قلدت الحريري، مثل مقامات الشريشي (١٢٢٢). وشجع الموحدون التأليف الديني والعلمي: ففي العلوم الدينية ألف ابن عاصم التحفة (١٤٢٦)، كما ألف في اللغة البطليوسي (١١٨٥)، ولكن يلاحظ أن فريقاً من العلماء، أمثال ابن مالك (١٢٧٤)، وأبو حيان (١٣٤٤)، آثروا المشرق إذ نزحوا إليه بمؤلفاتهم. وذاعت كتب السيرة بعد القاضي عياض، فقد ألف في السير: ابن بشكوال، والضبي، وابن الأبار، وابن زبير، وألف في التاريخ ابن سعيد المغربي كتابه المعروف «المغرب»، الذي اعتمد على كثير مما سبق في الميدان. وبرز في الجغرافيا: الإدريسي، وفي تأليف كتب الرحلات: ابن حامد الغرناطي (١١٦٩)، وابن جبير (١٢١٧) والعبدري في القرن ١٣، وازدهرت في القرنين ١٢ و١٣ العلوم، كالرياضة، والفلك،

والصيدلة، وعلم النبات، والطب، وقد أثرت العربية في لغة ش إسبانيا، وتغلغلت في لغاتهم الدارجة، وأوجدت لهجات خاصة، لها أدب شعبي خاص، يدرس لأهمية أثره في شعر أوروبا في القرون الوسطى، ولدوره في شعر النهضة.

والشعر الأندلسي له طابع خاص في الخصائص لاسيما في الفنون الشعرية الذي امتاز بالوصف ورثاء الممالك الزائلة والاستنجاد بالرسول وكبار الصحابة ونظم العلوم والفنون والشعر الفلسفي، كما امتاز معانيه وأفكاره بالوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد والتلميح إلى الوقائع التاريخية ولاسيما في رثاء الممالك الزائلة، أما ألفاظه وعباراته فقد كانت واضحة وسهلة والرقة والعذوبة وتجنب الغريب من الألفاظ واهتم بالصنعة اللفظية، وقد انتزع تصويره وخياله من البيئة الأندلسية الغنية بمظاهر الجمال الطبيعية وتزاحم الصور، أمابالنسبة للأوزان والقوافي فقد التزموا بوحدة الأوزان والقوافي بدايةً، ثم ابتدعواأوزانا جديدة لانتشار الغناء في مجالسهم ونوعوا في القوافي ومن ذلك الموشحات، من أشهر شعراء العصر الأندلسي هم أحمد عبد ربه، ابن برد، ابن هانئ الأندلسي وابن سهل الأندلسي الذي قال قصيدة المشهورة بالرداء الأخضر:

الأرض قد لبست رداءًأخضرا والطل ينثر في رباها جـــوهرا
هاجت فخلتُ الزهر كافورا بها وحسبتُ فيها الترب مسكا أذفرا
وكأن سوسنها يصافح وردها ثغر يقبل منه خداً أحمـــــرا
والنهر ما بين الرياض تخاله سيفا تعلق فـــي نجادأخضرا

مرحلة عصر الولاة:

ويبدأ بالفتح ودخول الإسلام لهذه البلاد وبعد تعيين أول والي عليها من قبل بني أمية في المشرق، وبطبيعة الحال كان أدباء تلك الفترة من الوافدين المشارقة، لذلك اتسم شعر تلك الفترة بأنه مشرقي خالص بمعنى أن خصائصه هي خصائص الشعر المشرقي من حيث الموضوعات والأسلوب، فالموضوعات تقليدية من مديح ورثاء وهجاء...الخ والأسلوب- كذلك- يسير على الاتجاه المشرقي من لغة وصور وبناء للقصيدة. وكان من أبرز شعراء تلك الفترة: أبو الأجرب جعونة بن الصمة، وأبو الخطار حسام بن ضرار، وإن لم يصلنا غير القليل من أشعارهما.

عصر بني امية:

ويبدأ بتولية عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) الحكم، وبناء مجد لبني أمية على أنقاض مجدهم الضائع في المشرق على يد العباسيين، وفي هذه الحقبة ظهر لنا أول جيل من الأندلسيين العرب، وإذا نظرنا لحالة الأدب لوجدناه متطبعا بالطابع المشرقي، فالشعراء يسيرون فيه على تقاليد المدرسة المشرقية المحافظة، غير ان هناك سمات ثلاث تميز شعراء تلك الفترة عن شعراء المشرق وهذه السمات، هي:

١-التجديد الموضوعي، بمعنى طرق موضوعات جديدة أو موضوعات قديمة ولكن بطريقة جديدة، كمعالجة الشاعر أبي المخشي للعمى، إذا أصيب به بعد أن كان مبصرا فأخذ يصور حاله وحاله زوجه المتأثرة بما أصابه.

٢-التركيز العاطفي: وهو تركيز الشاعر على عواطفه ونقلها عبر نصه الشعري.

٣- التجويد الفني: ويعني ايصال المعنى بطريقة الإيحاء.

ومن أبرز شعراء تلك الفترة: عبد الرحمن الداخل، وأبو المخشي، وحسانة التميمية، والحكم بن هشام. ولا يفوتني أن أذكر لك بانه في هذا العصر ظهرت لنا الموشحات كخطوة جديدة جريئة في عالم الشعر العربي.وقد مهد هذا الفن لظهور موضوعات جديدة نحو الخمريات، والغزل الشاذ، فالموشحات كما نعلم كانت مرتبطة إلى حد كبير بالغناء واللهو.وبذلك انتقل بعض الشعراء إلى مرحلة التجديد الشعري من طرق موضوعات جديدة نحو الخمريات، ووصف الطيعة، والزهد كرد فعل لظاهرة تفشي اللهو والمجونيات. اما الأسلوب فقد حدث فيه تجديد كذلك من استعمال للأوزان القصيرة، ومن سهولة اللغة الشعرية، ومن استمداد الصور من الحياة الحضارية..إلخ.

عصر ملوك الطوائف:

ويبدأ من انتهاء حكم بني أمية أثر الفتنة القرطبية التي ألحقت الدمار بكل شيء في قرطبة رمز العلم والمجد انذاك، وقد تميز هذا العصر بروح التنافس القوي بين ملوكه فأغلبهم كان محبا للعلم وللادب، بل منهم من كان يقرض الشعر كالمعتمد بن عباد ملك اشبيلية، وكان هؤلاءالملوك يزجلون العطايا للشعراء مما ساهم في تطور الشعر في تلك الفترة. وبسبب الاستقرار المادي والحضاري والعلمي وجدنا بعض الشعراء يعود مجددا للأسلوب الشعري القديم مع ربطه بالحضر، فظهر لنا أصحاب الاتجاه الوسطي أو المحافظ الجديد، وكان منهم ابن زيدون، وابن خفاجة، وغيرهما كثر، وهذا أبرز ملامح الأدب الأندلسي وأبرز اتجاهاته الادبية.

الموشحات:

وهي شكلٌ من أشكال الشعر ابتكره أهل الأندلس لرغبتهم في التجّديد والخروج على نظام القصيدة التقليديّة، بحيث ينسجم هذا الأدب الجديد مع طبيعة حياتهم الاجتماعية في تلك المرحلة، وتميز هذا النوع من الأدب عن غيره بعدة أمور منها: خصوصية البناء، وتميز اللغة، واختلاف الإيقاع،

والارتباط الكبير بالموسيقى والغناء، والالتزام بقواعد معينة؛ كاستخدامه للغة الدارجة أو اللغة الأعجميّة، وقد لاقى هذا الأدب اهتماماً كبيراً من الملوك والأمراء؛ مما كان له الأثر الأكبر في انتشاره الواسع خصوصاً بعهد المرابطين.

ويصف المؤرخون الموشحات بأنّها شعبيّة؛ لأنّها لون شعريّ نشأ في الأوساط الشعبيّة من أجل إرضاء رغبة الناس، ولأنّ البعض من نصوص هذا الفن نُظمت باللغة العاميّة الشعبيّة، مما جعل الشعراء الكبار في بداية نشأته يمتنعون عن التأليف على طريقته؛ لأنهم اعتبروا هذا التأليف بمنزلة عامة الناس، ولأنّ الموشح حسب رأيهم- أقل مستوى من الشعر التقليدي، ومع تطوّر الزمن تغيّرت هذه النظرة إلى الموشح، حيث أولوا له أهميةً كبيرةً، وبدأوا ينظمون شعرهم على منواله.

تعريف الموشحات تُعَرّفْ الموشحات في معناها اللغويّ: "أنّها كلام منظوم على وزن مخصوص"، وقد اشتُقّ اسمها من الوشاح؛ وهو رداء يمتاز بزركشته، وتزيينه بالزخارف والجواهر، وكان المراد من هذه التسميّة التغييرات التي طرأت على القصيدة العربيّة، أمّا التعريفات العديدة التي جاء بها الأدباء والباحثون، فتتلخص بأنّ الموشحات فنٌّ من فنون الشعر العربي المستحدّثة يختلف عن القصيدة التقليدية في قوافيه المتعددة، وأوزانه المتنوعة.

نشأة الموشحات:

يُعدّ الموشح ظاهرة من الظواهر الأدبية القليلة في الأدب العربي، فبعد الانتشار الواسع للشعر التقليدي في بلاد الأندلس بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديّين، والذي تميز بالتقيّد بالوزن والقافيّة ظهر جيلٌ جديدٌ من الشعراء، ونشأ وترعرع في الأندلس بين الطبيعة ومجالس الغناء والطرب ومظاهر الترف؛ فأثّرت هذه الأجواء المتحرّرة في شعره وعطائه، وأصبحت القصيدة الواحدة تظهر في مجالس الطرب غير ملتزمة ببحور الشعر وأوزانه

التقليديّة، حيث تنقّل الشعراء بين قوافي الشعر وبحوره وأوزانه، مما أدّى إلى تداخُل الغناء مع هذا اللون الجديد الذي تميّز باختلافه عن القصيدة التقليدية، من خلال اعتماده على أكثر من قافية ووزن وبحر عروضي.

إضافة إلى ما سبق؛ فإنّ الموشح نشأ أيضاً نتيجة وجود ظاهرة اجتماعيّة تجسّدت في الاختلاط المباشر بين العرب والإسبان، ونتج عن هذا الاحتكاك امتزاج لغويّ، تمثّل في معرفة الشعب الأندلسي للعاميّة العربيّة، واللاتينية، ونتيجة هذه الثنائيّة اللغويّة نشأت الموشحات التي كانت تُنظّم بالعربيّة الفصحى، باستثناء الفقرة الأخيرة منها، وكانت تسمى "الخرجة"، حيث كانت تنظم بالعاميّة الأندلسيّة، وهي عاميّة العربيّة التي كانت تستخدم ألفاظاً من العاميّة اللاتينية.

وأشهر أصحاب الموشحات لسان الدين الخطيب وغيره، وقد روي لابن المعتز من المشارقة موشح يمتاز بتماسك ديباجته ولا يقل رقة عن موشحات الأندلسيين، ونظموا الموشح باللغة العامية فلقِّب بالزجل، ثم شاع هذان النوعان في المشرق فحاكوا الأندلسيين فيهما حتى وقتنا هذا، ونبغ في الأندلس شعراء وشاعرات عديدون لا يحصون، أشهر مشهوريهم: ابن هاني –وقد سبق ذكره– وابن عبد ربه، وابن خفاجة، وابن حمديس، وولَّادة، وابن زيدون...إلخ، وأخيرًا ظهر الزجل الذي ينبع عندنا اليوم، وقد صار عاميًّا صرفًا في لهجته، وقد خصصنا هذا الفن بكتاب يظهر إن شاء الله.

النثر:

كانت مناصب الكتابة في عصر الولاة وأول عصر بني أمية كما كانت عليه في المشرق يتولاها الأمير مليًا على كاتبه، أو الكاتب برأي الأمير. وإذا علت مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة سمِّي حاجبًا، وهو أشرف ألقاب الدولة. أما اسم الوزارة فكان يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم، ثم صار لقب الوزير الذي ينوب عن الملك في سياسة

الدولة ويلقَّب بذي الوزارتين، يكون غالبًا من رجال الأدب، وكذلك كانت حالة الكتابة من جزالة اللفظ وفخامة المعنى وخلوها من السجع، إلا نادرًا، ثم حاكوا المشارقة في نظام الدواوين ورسوم الكتابات من تمييز أقسامها وتنويع بدئها وختامها، وتسجيع عباراتها، كطريقة ابن العميد في السجع القصير، واستمداد المعاني من الخيال، وحل المنظوم، ومن القرآن والحديث، وتضمين الأمثال، والتلميح إلى حوادث التاريخ، وكتبوا في كل الأغراض التي طرقها كتَّاب المشرق، ولكن بلاغتهم لم تنحط في آخر أمرهم كما انحطت في مصر والشام، في العصور التركية، لقلة طروء العناصر الأعجمية عليهم ولتأصُّل عادة الاشتغال بالعلم فيهم.

كتَّابهم: ابن شهيد أبلغ كتابهم، له في الوصف والمداعبات رسائل بديعة، وابن زيدون، والفتح بن خاقان.

التدوين والتصنيف: ابتدأ التدوين والتصنيف في أواخر عصر الأمويين وصدر العباسيين، أما الأندلس في ذلك الزمان فكانت مضطربة، فلما وطد عبد الرحمن أركان ملكه ومهَّد طريق الحضارة والرخاء والأمن لأهلها، هبُّوا يرحلون إلى المشرق لأداء فريضة الحج واقتباس العلوم، فتابعوا رحلاتهم إلى الشرق برًّا وبحرًا، ونقلوا إلى بلادهم علوم اللسان والدين؛ لأن الأندلسيين كانوا أشد أهل الأرض حبًّا للعلم، وتفانيًا في تحصيله وتوقيرًا لأهله، وساعدهم على ذلك بنو أمية وخلفاؤهم ببذل الأموال العظيمة في جمع الكتب ومكافأة العلماء، وأحلوهم أرفع منزلة، وسمعوا أمرهم وخضعوا لنهيهم، وأخصهم عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر «الحَكَم»، وقد جمع الحَكَم هذا في مكتبته بقصر قرطبة مئات الألوف من الكتب، وكذلك كان أكثر خلفاء بني أمية، وأعيان قرطبة، فما انقضى القرن الرابع حتى نبغ ألوف من العلماء، فضارعت الأندلس المشرق وفاقته في بعض العلوم، ولم يقصر ملوك الطوائف عن الأمويين فآزروا العلم وقرَّبوا العلماء، وكان من ملوكهم الأدباء

أيضًا مثل المظفر أحد بني الأفطس صاحب بطليموس، صاحب التاريخ المظفري في ٥٠ مجلدًا، وفي عصر المرابطين هدأت حركة العلم قليلًا؛ لأنهم اضطهدوا أصحاب الآراء والنِحَل المذهبية، حتى تساهل الموحدون في أمر مطاردة الفلسفة وعلومها، فنبغ من الحكماء والأطباء والكيمائيين جماعة أشهرهم: ابن رشد، والباجي، وابن زهر، ثم قلَّ الاختصاص في العلوم، وكانت تنتعش أحيانًا الحركة العلمية ثم ترقد، حتى أباد الإسبان العرب وعفوا آثارهم وأحرقوا كتبهم، فلم يسلم منها إلا ما نُقل قبل الجلاء أو جُهِل مكانه.

تأثير الأندلس: للأندلس أبلغ أثر عربي في الغرب، فكلية قرطبة كانت تضم بين جدرانها اثني عشر ألفًا من الطلاب، عرب وغير عرب، والفن العربي في البناء تجلى بأبهى مظاهره في الأندلس من قصر الحمراء إلى جامع قرطبة، وجعلوا للغة العرب سيادة هائلة في الغرب فاندحرت أمامها جميع اللغات، حتى طلب رؤساء الدين المسيحيون من البابا أن يترجموا كتب الطقوس الدينية إلى العربية، وأدخلوا في لغات الغرب القافية في الشعر التي لم يعرفها الغربيون قبل العرب، ثم طوروا شعرهم إلى نوع الموشحات، ووأخذ الطرب عن العرب من الموسيقى الكمنجة «الرَّباب» والفليت «الشبَّابة» عدا الألفاظ التي ملأت لغات الأوروبيين. أما العلوم وفروعها فحدِّث عنها ولا حرج، فقد ظلت كتب العرب مصدرًا لها، ولا يزال حتى اليوم المستشرقون يخرجونها كل عام.

شعراء الأندلس:

شعراء الأندلس فئتان: فئة ظلت محافظة في شعرها على النمط الشرقي فلم تخرج على التقليد، فقالت قصيدتها على الطراز الذي ألفه الشعراء المشارقة في التفكير والتصوير، فلم تكن أفكارهم غير شرقية. وعندما قال الصاحب بن عباد كلمته — حين اطَّلع على العقد الفريد ولم يجد فيه ما كان

ينتظر من أدبنا عبر البحار: هذه بضاعتنا ردت إلينا. جاءت تلك الكلمة في محلها. ولكن الفئة الثانية خرجت على العروضي، فالعرب الأندلسيون في فجر هجرتهم كانوا مقلِّدين للمشرق في كل شيء، حتى الألقاب التي كان يتخذها ملوكهم، ولما طال الزمان وتأثروا بمحيطهم الجديد خططوا قصائدهم على النظام المعماري الغربي، فصارت قصائدهم غير ذات زوايا أربع كبيوتنا الشرقية، ولما كان هذا الكتاب معمولًا — كما قلنا في التوطئة — ليكون دليلًا للقارئ في دنيا ثقافتنا الواسعة، اكتفينا بما قلنا حتى لا نخرج عن تخطيطنا؛ ولهذا نقول إن شعراء الأندلس ليسوا كلهم ممن وشَّحوا قصائدهم فنوعوا قوافيها ووحدوا موضوعها، ولعل أول المحافظين كان ابن عبد ربه الذي لقِّب بمليح الأندلس.

ابن عبد ربه:

هو مليح حقًّا، وقد كان المتنبي محقًّا حين سمع شعره وأثنى عليه؛ فلهذا الأديب شعر متماسك خالٍ من تلك الميوعة التي نجدها في شعر المتوسطين من شعر ذلك الشطر من الإمبراطورية العربية، فليس في شعر الأندلسيين الذين قالوا الموشحات شعر يماشي شعر المشارقة غير موشح لسان الدين الخطيب: جادك الغيث. والموشح الآخر المنسوب لابن المعتز، فابن عبد ربه، وهو الشاعر المجيد الذي لم يتخلَّ عن شرقيته، له شعر ذو حظ كبير من الخيال واعتماده على الاستعارة والتشبيه، والذي رأيته هو أن خياله أقوى من عاطفته، وُلد هذا الشاعر بقرطبة، وانكبَّ على المطالعة، ثم لما اشتد ساعده ألَّف كتابه «العقد الفريد» الذي زين به جِيد حسناء يعرب.

ابن زيدون وولَّادة:

لا تغرك هذه الواو والنون، فالعرب قالوا هكذا، وابن زيدون من مواليد قرطبة وهو عربي أصيل من بني مخزوم، وُهِب مَلَكة شعرية رائعة فقال الشعر يقطر رواء وماوية، وقال أشهر قصائده كما أوحاها إليه قلبه، فدارت

على الألسن وظلت حتى يومنا هذا في دورانها، قالها حين حِيل بينه وبين حبيبته ولادة بنت المستكفي، وهي شاعرة من طرازه، وقد كانت سافرة في ذلك الزمان، رغم أنها بنت الخليفة المستكفي، وقد أراد ابن عبدوس أن يشاركه في حبها ولكنها لم تمِلْ إليه، ولمَّا كان هذا من المقربين من أولياء الأمر دسَّ الدسائس، فنجحت وشايته، فسُجن ابن زيدون، ولما عجز عن استرضاء ابن جَهور صاحب العرش، فر من سجنه ولجأ إلى المعتمد بن عباد، واشتهر ابن زيدون بالرسالة التهكمية التي وجَّهها إلى ابن عبدوس، وهي من طراز رسالة التربيع والتدوير التي كتبها الجاحظ. والرسالة تشبه اليوم ما عُرف «بطبق الأصل»؛ إذ كتبها عن لسان ولادة صاحبة الندوة الأدبية التي تقول في وصف نفسها:

أنا والله أصلـــــــــــح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأمنح قبلتي من يشتهيها

وقد كانت تكره ابن عبدوس ولا تخشى أن تتندر عليه، وقد مرت عليه مرة وهو جالس أمام بركته الآسنة، فقالت له متمثلة:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

وقد كانت ولادة شاعرة حرة التفكير، كأنها من نساء اليوم المتطرفات، وإذا لم تنظم الروائع فحسبها أن حبها أوحى إلى ابن زيدون قصيدته الباقية: أضحى التنائي بديلًا من تدانينا. وسنقرؤها إن شاء الله في النصوص المختارة، وهي جزء تابع لهذا الموجز.

ابن عمار:

وُلد في بيت خامل، تأدَّب في قرطبة مدينة الأدب والعلم، ثم صار معلمًا للمعتمد ابن عباد ونجيَّه وسميره ووزيره، وابن عمار يجاري ابن زيدون، وأغلب قصائده في مدح المعتضد وابن المعتمد.

شعره: يمتاز شعر ابن عمار بصوره كما امتاز شعر ابن زيدون بعاطفته الحامية الوطيس، ومن قول ابن عمار في مدح سيده:

أثمرت رمحك من رءوس ملوكهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

وصبغت درعك من دماء كماتهم لما علمت الحسن يلبس أحمرا

أما نهاية ابن عمار فكانت بشعة؛ تآمر على مولاه المعتمد وعصاه، فسجنه المعتمد ولم يعفُ عنه رغم القصائد التي قالها في طلب العفو، بل قتله بيده في سجنه وأمر بدفنه.

ابن حمديس الصقلبي:

شاعر مبدع في الصور والتخيل، تعمَّق في وصف الطبيعة والعمران، وجد خياله مجالًا واسعًا، وكان له في محيطه مرعى خصيب، جنائن وارفة الظلال وأنهار تغني للغصون فترقص، بدائع وطرائف راح يصوِّرها ابن حمديس بقلمه، فجاءت لوحات طريفة نادرة، وقد مشى على خطى البحتري في وصف القصور والبرك، وسعى وراء التشابيه والاستعارات يتصيدها حتى ظهرت الصنعة وكثرت، ولم يهمل ابن حمديس شعر المدح فأغرق فيه، وعاش ميسورًا.

ابن خفاجة:

وُلد بجزيرة شقْر، وهو كابن حمديس في أغراضه الشعرية، حاكاه في صوره وإحساسه، وآفة الشعراء سيرهم خلف بعضهم كالقوافل على الطرق المعبَّدة، لكن ابن خفاجة لم يتكسَّب بشعره إلا نادرًا، فقاله في الموضوعات الأخرى.

ابن سعيد:

شاعر أندلسي، هاجر إلى مصر فأصابه داء الحنين إلى وطنه، فقال شعرًا جيدًا في ذلك، متذكرًا غرناطة التي ولد فيها.

لسان الدين الخطيب:

ولد بلُوشة، وتضلع من جميع علوم زمان حتى صار فيها حجَّة، ولما اجتمع أشده خلف أباه ووزِّر لبني الأحمر، وظل ينعم في ظل العز الوارف، حتى خلع مولاه فاعتقل وعذب، واتهم بالإلحاد والزندقة عملًا بالكلمة المشهورة: من تمنطق فقد تزندق. ثم كانت الفتوى وإباحة دمه، فهاجموا السجن فخنقوه وطرحوا جثته فدفن، ثم أُخرج من لحده وأُحرق، وكان لسان الدين شاعرًا مجيدًا وكاتبًا وخطيبًا وفيلسوفًا مشاركًا في جميع علوم زمانه، وله مؤلفات، منها: كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة، وكتاب الإشارة إلى آداب الوزارة، وبستان الدول.

تآليفه: وقد أوصل المقري تآليف لسان الدين الخطيب إلى الستين، وأشهر موشح اتبع حتى قلده المشارقة والمغاربة، هو موشح لسان الدين الذي مطلعه:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

وله غيره موشحات كثيرة وشعر وافر.

المعتمد بن عباد:

سيرة حياته: أبوه المعتضد العبادي ملك إشبيلية، مات أخوه الذي كان صاحب الحق في ميراث العرش، فانتهى الأمر إليه. اتخذ الشاعر ابن عمار وزيرًا لدولته، ثم قتله بيده كما مرَّ، واستولى على قرطبة، وبلغ مرسية، ولما اتسعت رقعة ملكه وخاف عليه من ملك قشتالة ألفونس، استنجد بابن تاشفين ملك مراكش فلبَّاه. وأخيرًا انقلب عليه وأشعل نار الفتن، فاستولى على قرطبة وإشبيلية وأسر المعتمد ونفاه وأهله إلى أغمات، وهناك مات بعد عذاب شديد وفقر ليس فوقه فقر، وهذا الملك هو أحد الذين صوَّرهم أحد شعراء عصرهم حين قال:

وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة منها أمير المؤمنين ومنبر

إنه شاعر، وقد وصف لنا سوء مصيره في شعره الذي هو أبلغ معبِّر عن آلامه ونكبته الفظيعة. قال يصف موقفه من العيد في أغمات:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا فجاءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك فـــــي الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتلسيم خاشعـــــــــــة أبصارهن حسيراتٍ مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنـــــــــها لم تطأ مسكًا وكافورا
أفطرت فـــــــي العيد لا عادت إساءته وكان فطرك للأكباد تفطيرا
من بات بعدك فـــــــــــــي ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

وخوفًا من أن تتساءل كما تساءل العقاد عن التين والعنب في قصيدة أبي تمام البائية فتقول منتقدًا: متى كان المسك والكافور للموطئ؟ فإننا نقول لك كما قلنا لذاك العلامة في غير هذا الكتاب.

حكاية المسك: زعموا أن زوجة المعتمد أعجبها مشهد النسوة الفقيرات يحملن جرارهن ويخضن في الوحل، فتمنَّت أن تفعل مثلهن، فأبى المعتمد، ولكنه حبًّا بتلك الملكة عمل لها وحلة من مسك، فحملت جرَّتها مثلهن وفعلت هي وبناتها كما فعلن، ويقال إنها حينما جاءت زائرة زوجها الملك في زندانه، تذمرت وقالت إنها لم تشاهد يومًا أبيض في حياتها معه، فأجابها المعتمد: ولا يوم الطين ...!

من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

المعتمد وأبو فراس: المعتمد أبو عيلة، ولذلك جاء تفجعه مؤلمًا، أما أبو فراس فكان برًّا بأمه فما ذكر غيرها حين قال:

لولا العجوز بمنبج ما خفت أسباب المنيه

فبعد هذا الذي نقلناه لك من شعر المعتمد، أقول: تعطلت لغة الكلام فقابِل أنت بين الشاعرين، فكلاهما منكوب، وقد صح فيه قول من قال:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

فلو تذكر المعتمد في سجنه بأية صورة وحشية قتل شاعره ووزيره ابن عمار، لهانت عليه مصيبته، وعندما تقرأ رثاء أبي البقاء الرندي للأندلس، ستهون جميع المصائب.

ابن هانئ الأندلسي:

نسبه: هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي، وُلد بإشبيلية ٣٢٦، اتصل بعامل إشبيلية زمن المستنصر الأموي، فمدحه بقصائد غرَّاء، اتُّهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بمذاهب الفلاسفة، وظهر ذلك الأثر في شعره لوصفه الممدوح بصفات المعبود، فنقم لذلك أهل إشبيلية فأشار عاملها عليه بالهجرة، فهاجر إلى المغرب ومدح ولاته من قبل المعز الفاطمي، فاتصل خبره بالمعز فدعاه إليه ومدحه بإفريقية، ودخل في دعوة الفاطميين فاتخذه المعز شاعرًا لدولته.

ولما فُتحت مصر على يد جوهر وبنى القاهرة ورحل المعز إليها، أراد ابن هانئ اللحاق به، فتجهَّز وتبعه، ولما وصل إلى برقة نزل على بعض أهلها، فأقام عنده في مجلس أنس، يقال إنهم عربدوا عليه وقتلوه وعمره ٣٦ سنة، ويقال أيضًا إنه وُجد مشنوقًا بتكة سراويله، روي أنه عندما بلغ المعز خبر موته قال: هذا شاعر كنا نرجو أن نفاخر به الشرق.

أخلاقه: كان غير ديِّن، خالعًا كافرًا.

لقبه: متنبي الغرب.

صراحته: كان صريح القول والفعل، لا يبالي بأحد ولا بعواقب الصراحة، ومبالغته بها قتلته. وهذه المبالغة في الصراحة أدت إلى تطرفه في الأفكار والمديح حتى قال لممدوحه:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله:

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء

شعره: قيل فيه:

إن تكن فارسًا فكن كعليٍّ أو تكن شاعرًا فكن كابن هاني

هو كبير شعراء الأندلس، غير مدافع، سليم التفكير، سلس التعبير، عالج كثيرًا من مشاكل الحياة وأحوال الاجتماع.

تأثره بالمتنبي: اطَّلع على شعر المتنبي وهو معاصره، فنسج نسجه في الحكمة والفلسفة والأمثال، وفاقه في المبالغة التي لم نسمع بمثلها في الشعر العربي.

وصفه: يجيد وصف ما يراه إجادة نادرة، ولذلك سموه متنبي الغرب، تشبيهًا له بأبي الطيب، إنما بين الاثنين فرق: المتنبي مبتدع، وابن هانئ متبع، شعره يقرقع، كما قال المعري.

أبوالبقاء الرندي:

وأبو البقاء الرندي هو أبو البقاء صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف الرندي الأندلسي (٦٠١ هـ -٦٨٤ هـ الموافق: ١٢٠٤ - ١٢٨٥ م) هو من أبناء (رندة) قرب الجزيرة الخضراء بالأندلس وإليها نسبته، وقد عاشَ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وعاصر الفتن والاضطرابات التي حدثت من الداخل والخارج في بلاد الأندلس وشهد سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد الأسبان، وحياتُه التفصيلية تكاد تكون مجهولة، ولولا شهرة هذه القصيدة وتناقلها بين الناس ما ذكرته كتب الأدب، وإن كان له غيرها مما لم يشتهر، توفي في النصف الثاني من القرن السابع ولا نعلم سنة وفاته على التحديد، وهو من حفظة الحديث والفقهاء. وقد كان بارعا في نظم الكلام ونثره، وكذلك أجاد في المدح والغزل والوصف والزهد، إلا أن شهرته تعود إلى قصيدة نظمها بعد سقوط عدد من المدن الأندلسية، وفي قصيدته التي نظمها ليستنصر أهل العدوة

الإفريقية من المرينيين عندما أخذ أول سلاطين غرناطة في التنازل للإسبان عن عدد من القلاع والمدن إرضاء لهم وأملا في أن يبقى ذلك على حكمه غير المستقر في غرناطة وتعرف قصيدته بمرثية الأندلس، وهي من أروع القصائد في رثاء الأندلس، يقول في مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان * فلا يغر بطيب العيش إنسان**

هـــي الأمور كما شاهدتها دولٌ * من سره زمن سائته أزمانُ**

أما مناسبتها، فقد أخذت سيطرة العرب المسلمين، في نهاية حكمهم لبلاد الأندلس، تتضاءل شيئا فشيئًا، بسقوط بعض المدن الإسلامية الهامة، في أيدي الفرنجة، وأصبحت البلاد تروّع كلّ يوم، بغارات الأعداء دون أن تجد قوة إسلامية، تصد الزحف الصليبي المتوغل، وقد أدرك المفكرون هول الخطر الراصد، فانطلق الشعراء والأدباء، يصوّرون النهاية المتوقعة، في حسرة بالغة، ومما قيل في هذه المأساة ما نقدّمه الآن من أبيات صاغها شاعر متفجع يبكي الوطن الضائع، ويحذّر المسلمين في شتى البقاع الأرض.

****

المصادر والمراجع

١. **شوقي ضيف:** النقد ، دار المعارف (د،ت)

٢. **ابن سلاّم الجمحي:** طبقات الشعراء، تحقيق عمر فاروق الطبّاع، دار الأرقم بيروت ١٤١٨هـ ١٩٩٧م

٣. **ابن قتيبة الدينوري:** الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف (د،ت)

٤. **قصي الحسين:** النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وإعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس لبنان ٢٠٠٣م.

٥. **د. مصطفى عبد الرحمن:** في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٦. **د. علي جواد الطاهر:** مقدمة في النقد الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت لبنان سبتمبر ١٩٧٩م.

٧. **د. شوقي ضيف:** تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف الطبعة الثامنة.

٨. **الجاحظ:** الحيوان (المكتبة الشاملة موافقة للنسخة المطبوعة بمطابع الحلبي).

٩. **الأصبهاني:** الأغاني (المكتبة الشاملة موافقة للمطبوع، نسخة دار بولاق مصر).

الفهرست

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة/ توطئة	٦/٤
٢	الفصل الأول: مدخل إلى الشعر الجاهلي	٩
٣	الفصل الثانى: مدخل إلى الشعر الإسلامي	٣٢
٤	الفصل الثالث: مدخل إلى الشعر الأموي	٥٦
٥	الفصل الرابع: مدخل إلى الشعر العباسي	٨٧
	الفصل الخامس: مدخل إلى الشعر الأندلسي	١٠٥
	المصادر والمراجع	١٢٨
٦	الفهرست	١٢٩